بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الموضوعي
ومقاصد القرآن الكريم

أ.د. أحمد حسن فرحات

لا شك أن التفسير الموضوعي وثيق الصلة بمقاصد القرآن، ومن ثم جاء هذا البحث ليبين كيف يمكن لهذا النوع من التفسير أن يسهم في بيان مقاصد القرآن، ويكشف عن طبيعة العلاقة بينهما. ويقتضي البحث- في هذه الدراسة- أن نمهد له بمقدمة تعريفية، نخص كلا من التفسير الموضوعي، ومقاصد القرآن الكريم بكلمة موجزة، تبين المراد بكل منهما.

المراد بالتفسير الموضوعي:

التفسير المو ضوعي : مصطلح حديث، لم يعرف في دراسات السابقين. والمعروف في دراسات السابقين: هو التفسير التحليلي: الذي يتناول كل آية عل حدة، فيتحدث عن جزئيات الآية، من معا ني مفرداتها، وما فيها من إعراب، وقراءات، إلى غير ذلك من التفاصيل...

– أما التفسير الموضوعي:

-فهو ينطلق من وحدة الموضوع، الذي يجمع بين آيات قرآنية متعددة، من سور مختلفة.

– أو يركز على موضوع معين، تقوم عليه سورة واحدة . فيجعل من السورة موضوعاً واحداً .

وهو في كل ذلك يلحظ المعاني، ويستنبط العناصر من النص، ويعقد بينها المو ازا نات والمقارنات ، ثم يعيد تركيبها، لتكون أشبه ببحث مستقل ، مقسم إلى أبواب وفصول، ومباحث، وفقرات. بحيث تقوم فيه الفروع على الأصول، وتندرج فيه الجزئيات تحت الكليات ، وترتبط فيه النتائج بالأسباب ".

– أما النوع الآخر من التفسير الموضوعي، فهو المتعلق بالمصطلحات القرآنية :

حيث يعمد الدارس إلى المفردات القرآنية، التي أعطاها القرآن دلالة خاصة، من خلال استعماله، بحيث يصح أن يقال : إن لهذه الكلمة، أو الصيغة القرآنية: دلالة محددة، لا يصح أن ينقص منها، أو يزاد عليها .

فيتتبع الدارس هذه المفر دات- في سياقاتها التي وردت فيها ، ويتحدث عن معانيها، اللغوية مبتدئا بأصولها الاشتقاقية ، فمعاني أبنيتها الصرفية ، مبينا الفروق في دلالاتها اللغوية . ثم ينطلق إلى بيان معانيها في الآيات القرآنية، التي وردت فيها، مفرقا بين ما ورد بالمعنى اللغوي، وما ورد فيه بالمعنى الشر عي . ثم يبين الصلة بين المعاني الشرعية، والمعاني اللغوية . ثم يخرج بمفهوم محدد لهذه المفردات ، وبذلك تنضبط مفهومات القرآن، والتي كثيراً ما يقع الخطأ فيها: لنقص الاستقراء، في تتبع الآيات،

وبيان دلالتها. وتعتبر هذه المصطلحات: مفاتيح لابد منها، لدراسة القرآن الكريم.

ولا يقصد بالحديث – هنا-: الحديث عن جزئيات الآية اللفظية، كما هو الحال في التفسير التحليلي، وإنما يتحدث عنها كجزء، موضوعي، يتصل بكلٍّ موضوعي.

ومن هنا: فالمفسر الموضوعي: ينطلق للكلام في المعاني مباشرة، ولا يقف عند الألفاظ وتحليلاتها، إلا إذا كان ذلك ضرورياً للمعنى، الذي هو موضع ا هتمامه .

جذور التفسير الموضوعي في دراسات السابقين:

يمكن أن نجد في دراسات السابقين: ما يصح أن يدخل تحت التفسير المو ضوعي- مع شيء من التجوز- وذلك كدراسة: "ماهية العقل" و"فهم القرآن"-عند الحارث المحاسبي-.

ودراسات الراغب الأصفهاني في كتبه:

" الذريعة إلى مكارم الشريعة" و "تفصيل النشأتين " و" الاعتقادات"، وأمثال ذلك.

ومثل دراسات الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه: " المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى. وكتابه : "جواهر القرآن". ودراسات ابن تيمية في: " سنة الله"، ورسالته: " في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل " وغير ذلك من الدراسات.

المراد بمقاصد القرآن الكريم:

ويراد بها الأهداف، والغايات، التي يتوخاها النص القرآني، من خلال ما جاء ت به آياته: من التعريف بعا لم الغيب- الذي يؤكد وجود خالق واحد لهذا الكون، هو الله. كما يؤكد وحدا نيته تعالى في أسمائه، وصفاته، و أ فعاله- كما يشمل الإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وما فيه من دينونة وجزاء. كذلك يشمل الكلام التعريف بعا لم الشهادة، وما خلق الله فيه من مخلوقات متنوعة، كالجبال والأنهار، و ا لمحيطات والبحار، والكواكب والنجوم، والشموس والأقمار. وما بث في هذا الكون العريض من أنواع الدواب، و صنوف النبات. وجعل ذلك كله مسخرا لخدمة الإنسان، الذي استخلفه في هذه الأرض، ليعمرها بمنهج الله. وأن على هذا الإنسان أن يكون عبدا مطيعا لله تعالى، فيما شرع له من الشرائع، و أنزل عليه من الأحكام، لتستقيم حياته في هذه الدنيا، وليكون خليقا بجوار ربه في حياته الأخرى...

ولابد أن نشير هنا إلى أن هناك مقاصد كلية للقرآن، تضم تحتها مقاصد فرعية متعددة، كما أن هناك مقاصد جزئية كثيرة، أشارت إليها الآيات الكثيرة. وقد تختلف وجهات النظر عند العلماء والدارسين، في تصنيف هذه المقاصد، واعتبار بعضها كليا، وبعضها جزئيا.

من مقاصد القرآن في دراسات السا بقين :

سبق أن أشرنا إلى أن بعض دراسات السابقين تصلح أن تكون جذورا للتفسير الموضوعي، الذي عرف حديثا، وإن لم تكن جاءت تحت هذه التسمية. ومن ثم سنعمد إلى اختصار نموذجين من هذه الدراسات:

- أحدهما للراغب الأصفهاني.

-والآخر لأبي حامد الغزالي.

-كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني:

يعتبر كتاب الّذريعة للراغب من الكتب المهمة، ومما يؤكد هذه الأهمية أن الغزالي كان حريصا على استصحابه معه في سفره لنفاسته.

منزلة العبودية، ومنزلة الخلافة عن الله:

يذكر الراغب في مقدمة الكتاب : أنه ألف هذا الكتاب، ليكون ذريعة إلى مكارم الشريعة، وبين كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية، التي جعلها الله تعالى شرفًا للأتقياء. وكيف يترقى عنها، إذا وصلها إلى منزلة الخلافة، التي جعلها اللَّه تعالى شرفا للصديقين، والشهداء.

فبالجمع بين أحكام الشرع، ومكارمه علمًا. وإبرازهما عملًا، يكتسب العلى، ويتم التقوى. ويبلغ إلى جنة المأوى.

ثم يذكر الراغب أن الفعل المختص بالإنسان: ثلاثة أشياء:

١ - **عمارة الأرض** المذكورة، في قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[١]

وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش: لنفسه، ولغيره.

٢ - **وعبادته** المذكورة في قوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٢](٥٦)

وذلك هو الامتثال للباري - عز وجل - في أوامره، ونواهيه.

٣ - وخلافته المذكورة في قوله تعالى:

(وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[٣]

وغيرها من الآيات.

وذلك هو: الاقتداء بالباري سبحانه- على قدر طاقة البشر- في السياسة، باستعمال مكارم الشريعة.

ومكارم الشريعة: هي الحكمة، والقيام بالعدالة، بين الناس. والحلم، والإحسان، والفضل. والقصد منها: أن تبلغ إلى جنة المأوى، وجوار رب العزة تعالى.

وكل ما أوجد- لفعل، ما- فشرفه: بتمام وجود ذلك الفعل منه.

---

[٦]-هود:٦١

[٧]-الذاريات:٥٦ -

٨- الأعراف:١٢٩ -

ودناءته: بفقدان ذلك الفعل منه......

فمن لم يصلح لخلافة اللّه تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه: فالبهيمة خير منه. ولذلك قال تعالى في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[٤] .

ثم يتحدث الراغب عن :

السياسة التي بها يستحق الإنسان خلافة اللّه تعالى، فيقول:

وقد تقدم أن الخلافة تستحق بالسياسة، وذلك بتحري مكارم الشريعة. والسياسة ضربان:

أحدهما: سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به.

والثاني: سياسة غيره من ذويه وأهل بلده، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه. ولهذا ذم اللّه تعالى من ترشح لسياسة غيره، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وهو غير مهذب في نفسه، فقال:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[٥]....

ثم يتحدث الراغب عن:

الفرق بين مكارم الشريعة، وبين العبادة، وعمارة الأرض:

فيقول : أما مكارم الشريعة: فمبدؤها طهارة النفس، باستعمال التعلم، واستعمال العفة، والصبر، والعدالة. ونهايتها: التخصص بالحكمة، والجود، والحلم، والإحسان.

فبالتعلم: يتوصل إلى الحكمة. وباستعمال العفة: يتوصل إلى الجود. وباستعمال الصبر: تدرك الشجاعة، والحلم. وباستعمال العدالة: تصحح الأفعال.

ومن حصل له ذلك: فقد تذرع المكرمة المعنية بقوله تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)[٦].

وصلح لخلافة اللّه (تعالى): وصار من الربانيين، والشهداء، والصديقين..........

ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع، ما لم يقم بوظائف العبادات، فتحري العبادات: من باب العدل. وتحري المكارم: من باب الفضل، والنفل. ولا يقبل: تنفل من أهمل الفرض. ولا تفضل: من ترك العدل.....

---

[٩]-الأنعام:١٧٩

١٠-البقرة:٤٤

١[١]-الحجرات:١٢

وأما عمارة الأرض: فالقيام بما فيه تزجية لحياة الناس، وصلاح معاشهم. والإنسان الواحد: من حيث إنه لم يكف أمر معاشه- بانفراده في مأكله، وملبسه، ومسكنه- ولم يكن له سبيل إلى ثباته، في الدنيا: إلا بما يسد جوعته، ويستر عورته، ويقيه من الحر، والبرد،

لم يكن له بد من تحصيل ذلك، من الوجه المباح له. ولذلك قال تعالى:

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى .وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)[7]......

....

وكون طهارة النفس: شرطًا في صحة خلافة الله تعالى، وكمال عبادته، فلا يصلح لخلافة اللّه تعالى. ولا يكمل لعبادته، وعمارة أرضه: إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسه، ونجسه............ وإنما لم يصلح لخلافة اللّه تعالى: إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة، هي: الاقتداء به على قدر طاقة البشر، في تحري الأفعال الإلهية .

ومن لم يكن طاهر النفس: لم يكن طاهر القول، والفعل...

ولهذا قيل: من طابت نفسه: طاب عمله. ومن خبثت نفسه خبث عمله. ....

وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: "الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ"[8]

وبقوله: "وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا"[9]

ولأجل أنه لا يطيب عمل من خبثت نفسه. قال تعالى:

"أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى"[10]

....

ويقوي ذلك ما روي: أن التقوى: لا تسكن إلا قلبا نظيفًا. وإلى الطهارتين، أشار بقوله تعالى:

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)[11]

وكنى بالثياب، عن البدن. قال الشاعر:

ثياب بني عوف طهارى نقية ... وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[12]

١٢-طه:١١٨-١١٩

١٣- النور:٢٦

١٤-الأعراف:٥٨

١٥-الحجرات:٣

١٦-المدثر:٤-٥

١٧-الأحزاب:٣٣

وقال تعالى: (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ)[١٣]
وقال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)[١٤].......

وهكذا نرى أن الراغب يوجز المقاصد العامة المختصة بالإنسان: بالعبادة، والعمارة، والخلافة عن الله.

حول كتاب الذريعة:

سبق أن أشرنا إلى أهمية كتاب الذريعة للراغب الأصفهاني، وأن الإمام الغزالي كان يستصحبه معه في سفره. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الغزالي كان دائم النظر فيه، ولا يستطيع الاستغناء عنه، لا حضرا، ولا سفرا. ولا شك بأن مثل هذ الكتاب جدير بهذه العناية، وهذا الاهتمام. ومن ثم يجب على الدارسين أن يقر ؤ وه قراءة واعية مستوعبة، وأن لا يمروا على ما فيه مرور الكرام.

وقد لاحظت أن الراغب أثناء حديثه عن الخلافة يكاد يقصر معناها على:

" الاقتداء بالباري سبحانه- على قدر طاقة البشر- في السياسة، باستعمال مكارم الشريعة".

ولعل هذا المعنى هو الذي قصده بقوله في كتابه المفردات:

الخلافة : هي النيابة عن الغير: إما لموته، وإما لعجزه، وإما لغيبته، وإما لتشريف المستخلف. وعلى ذلك استخلف الله أولياءه في الأرض...علما أن هناك أنواعا أخر من الخلافة، كخلافة "الخلائف": التي يراد بها: خلافة الأمم المهلكة. وخلافة " الخلفاء" : التي يراد بها خلافة الأمم الصالحة. فعلى الذين خلفوا المهلكين "الخلائف": أن يخالفوهم . وعلى الذين خلفوا الصالحين "الخلفاء": أن يقتدوا بهم. ومن هنا نقول: خلفاء النبي، ولا نقول :خلائف النبي. وقد بينا هذه الأنواع وغيرها في كتابنا : "الخلافة في الأرض"[١٥].

الغزالي في كتابه "جواهر القرآن":

أما أبو حامد الغزالي فقد فصل القول في مقاصد القرآن تفصيلا يكاد يكون مستقصيا، وجعل ذلك تحت فصول وأقسام، ونحن مضطرون هنا إلى تلخيص ما جاء في هذا الكتاب، نظرا لأنه يمثل العمود الفقري لمقاصد القرآن، علما بأن هذا التلخيص أشبه ما يكون بفهرس لما جاء فيه، ولا يمكن أبدا أن يغني عن الأصل. بل إننا نطمع أن يكون هذا التلخيص مشجعا، ودافعا للرجوع إلى الأصل، ودراسته دراسة متأنية، واعية. فالكتاب في غاية الأهمية في موضوعه.

١٨- المائدة:٦

١٩-البقرة:٢٢٢

٢٠- انظر: الخلافة في الأرض

ذكر أبوحامد في الفصل الأول : أن القرآن هو البحر المحيط وينطوي على أصناف الجواهر والنفائس......

وذكر في الفصل الثاني : حصرا لمقاصد القرآن ونفائسه، حيث قال:

سِرُّ القرآن، ولُبَابُه الأ صفى، ومقصدُهُ الأقصى: دعوَةُ العباد إلى الجَبَّار الأعلى، ربِّ الآخرةِ والأولى، خالق السماوات العُلَى، والأرَضين السُفلى، وما بينهما وما تحت الثَّرَى، فلذلك انحصرت سُوَرُ القرآن وآياتُه في ستة أنواع:

- ثلاثة منها: هي السوابق، وهي:

(١) تعريف المدعو إليه.

(٢) وتعريف الصراط المستقيم، الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

(٣) وتعريف الحال عند الوصول إليه.

-وأما الثلاثة المتِمَّة:

- فأحدها: تعريف أحوال المُجيبين للدعوة.

وتعريفُ أحوال النَّاكلين عن الإجابة.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكَشْفُ فضائحهم وجهلهم، -بالمجادلة والمُحاجَّة على الحق-.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأُهبة والاستعداد.

فهذه ستة أقسام.

أما الفصل الثالث: فقد خصصه لشرح مقاصد القرآن ، وقد جعله أقساما:

القسم الأول : في تعريف المدعو إليه:

وهو شرح معرفة الله تعالى. وتشتمل هذه المعرفة على :

(١) معرفة ذات الحق تبارك وتعالى.

(٢) ومعرفة الصفات.

(٣) ومعرفة الأفعال.

وهذه المعارف الثلاثة ليست على رتبة واحدة، بل أَنْفَسُها:

-معرفة الذات...:

- ثم يليه معرفة الصفات...:

-ويليه: معرفة الأفعال:.....

-فمعرفة الذَّات: أضيَقُها مجالاً، وأعسَرُها منا لاً.

- وأما الصفات: فالمجال فيها أفسح، ونطاق النُّطق فيها أوسع..

- وأما الأفعال: فبحرٌ مُتَّسِعَةٌ أكنافُه، ولا تُنَال بالاستقصاء أطرافُه...

وقد ذكر الآيات الواردة فيها- على الخصوص- جملةً واحدة، فإنها زُبْدَةُ القرآن، وقلبُهُ، ولُبَابُه، وسِرُّه.

-وهي سبْعُمِائَة وثَلاثٌ وستونَ آية موزعة على مجموع السور القرآنية-.

القسم الثاني: في تعريف طريق السلوك إلى الله تعالى:

وذلك بِالتَّبَتُّل كما قال الله تعالى {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} أي انقَطِعْ إليه، والانْقِطاع إليه: يكون بالإقبال عليه، والاعراضِ عن غيره، وتَرجَمَتُهُ قوله {لاَ إله إلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً} ....

ومعرفة السلوك، والوصول أيضاً: بحر عميق، من بحار القرآن. وسنجمع لك الآيات المرشدةَ إلى طريق السلوك، لِتَتَفَكَّرَ فيها جملةً، فَعَساك ينفتح لك ما ينبغي أن ينفتح...

القسم الثالث: في تعريف الحال عند ميعاد الوِصَال:

وهو يشتمل على ذِكر الرَّوْحِ، والنعيم الذي يلقاه الواصِلون.

والعبارة الجامعة، لأنواع رَوْحِها: الجنة. وأعلاها: لذةُ: النظر إلى الله تعالى.

ويشتمل [أيضاً] على ذكر الخِزْيِ، والعذاب- الذي يلقاه المحْجوبونَ عنه- بإهمال السلوك.

....

القسم الرابع : في أحوالِ السَّالكين، والنَّاكبين:

- أما أحوال السَّالكين: فهي: قَصَصُ الأنبياء، والأَوْلياء.

-وأما أحوالُ الجاحدين، والنَّاكبين: فهي كقَصَصِ نمرودَ، وفرعون، وعادٍ وقَومِ لوط........

والآيات الواردة فيهما كثيرة، لا يُحتاجُ إلى طلبها وجمعها.

القسم الخامس:

في مُحاجَّةِ الكفار، ومجادَلَتِهم، وإيضاحِ مَخاز يهم: بالبُرهان الواضح، وكَشْفِ تَخَا يِيلِهِم وأباطيلهم

....

القسم السادس: في تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التَّأهُّب لِلزَّاد، والاستعداد بإِعداد السلاح- الذي يَدفعُ سُرَّاقَ المنازل وقُطَّاعَها-

ولا يخفى عليك الآياتُ الواردة في هذا الجنس، وتحتَهُ أساسياتٌ، ومصالِحُ، وحِكَم وفوائد. يدركها المتأمل في محاسن الشريعة المبيِّنة لحدود الأحكام الدنيوية.

ويشتمل هذا القسم على ما يسمى: الحلالُ، والحرامُ، وحدودُ الله....... ..

فهذه مَجامع ما تنطوي عليه سُوَر القرآن وآياتُها.

وإن جمعتَ الأقسامَ [السِتَّة المذكورة] مع شُعَبِها المقصودة في سلك واحد: أَلْفَيْتَها عشرةَ أنواع:

ذِكرُ الذات، وذِكرُ الصفات؛ وذكر الأفعال؛ وذِكرُ المِعاد؛ وذِكرُ الصِّراط المستقيم، أعني جانبيَ التَّزكيَة والتَّحليَة؛ وذِكرُ أحوال الأَوْلياء؛ وذِكرُ أحوال الأعداء، وذِكرُ مُحاجَّةِ الكفار؛ وذِكرُ حدود الأحكام.

الفصل الرابع: في كيفية انْشِعَاب العلوم الدينية كلها عن الأقسام العشرة المذكورة.......

ويتمُّ لكَ ذلك إذا عرفتَ انقسامَها إلى:

–علوم الصَّدَف.

–وعلوم الجوهر واللُّباب :

المبحث الأول: علوم الصَّدَف:

اِعلم أن لهذه الحقائق التي أشرنا إليها أسراراً وجواهر، ولها أصْداف. والصَّدَف: أول ما يظهر.

–ثم يقف بعض الواصلين إلى الصَّدَف: على الصَّدَف.

–وبعضُهم يفتُق الصَّدَفَ ويطالع الدُرّ.

فكذلك صَدَفُ جواهر القرآن– وكِسْوَتُه : اللغة العربية–:

فانشَعَبَت منه خمسُ علوم:

وهي: علم القِشر، والصَّدَف، والكِسْوَة:

(١) إذْ انشَعَبَ من ألفاظه: علم اللغة

(٢) ومن إعراب ألفاظه: علم النحو.

(٣) ومن وجوه إعرابه: علم القِراءات.

(٤) ومن كيفية التصويت بحروفه علم مخارج الحروف.

إذْ أولُ أجزاء المعاني التي منها يَلْتَئِمُ النطق: هو الصوت.

ثم الصوت– بالتَّقطيع–: يصير حرفاً. ثم عند جمع الحروف: يصير كلمة. ثم عند تَعَيُّنِ بعض الحروف المجتمعة: يصير لغة عربية. ثم بكيفية تقطيع الحروف يصير مُعْرَباً. ثم بِتَعَيُّن بعض وجوه الإعراب: يصير قراءةً منسوبةً، إلى القِراءات السبع

(٥) ثم إذا صار كلمة عربية صحيحة مُعْرَبَةً: صارت دالة على معنى من المعاني، فَتَتَقَاضَى للتفسير الظاهر. وهو العلم الخامس.

فهذه علوم الصدف، والقشر. ولكن ليست على مرتبةٍ واحدة.......

فصَدَفُ القرآن، ووجهه البَرَّاني، الخارج: هو الصوت، والذي يتولَّى علم تصحيح مَخارِجه في الأداء والتَّصويت صاحبُ علم الحروف.....

–وهذا يعرفك منزلةَ علم المقرِ يء، إذْ لا يعلم إلاَّ بصحة المخارج.

–ثم يليه في الرُتبة: علم لغة القرآن، وهو الذي يشتمل عليه مثلاً تُرْجُمان القرآن، وما يقاربه من علم غريبِ ألفاظ القرآن.

–ثم يليه في الرتبة إلى القُرب: علم إعراب اللغة، وهو النحو، فهو من وجه يقع بعده، لأن الإعراب بعد المعْرَب، ولكنه في الرتبة: دونه، بالإضافة إليه، لأنه كالتابع للغة.

–ثم يليه عِلْمُ القِراءات: وهو ما يُعرَف به وجوهُ الإعراب، وأصنافُ هيئاتِ التصويت، وهو أخصُّ بالقرآن، من اللغة، والنَّحو، ولكنه من الزوائد المستَغْنَى عنها– دون اللغة، والنحو– فإنهما لا يُستغنَى عنهما. فصاحب علم اللغة والنحو: أرفع قدراً ممن لا يعرف إلا علم القراءات. وكلهم يدورون على الصَّدف، والقِشر. وإن اختلفت طبقاتهم.

–ويليه علمُ التفسير الظاهر، وهو الطبقة الأخيرة، من الصَّدفة، القريبة من مُمَاسَّة الدُّرّ، ولذلك يشتد به شَبَهُهُ، حتى يظن الظَّانُّون أنه الدُّرّ. وليس وراءَه أنفسُ منه، وبه قنع أكثر الخلق، وما أعظمَ غُبْنَهُم وحِرمانَهم، إذ ظنوا أنه لا رتبة وراء رُتبتهم.

ولكنهم بالإضافة إلى من سواهم، من أصحاب علوم الصدف: على رتبة عالية شريفة، إذ علم التفسير: عزيزٌ بالنسبة إلى تلك العلوم، فإنه لا يُراد لها. بل تلك العلوم تُراد للتفسير.

وكل هؤلاء الطبقات: إذا قاموا بشرط علومهم، فحفظوها وأَدَّوْها على وجهها، فيشكرُ الله سعيَهم، ويُنَقِّي وجوهَهم. ....

فهذه علوم الصدف.

المبحث الثاني: علومُ اللُّباب

وهي على طبقتين:

أ– الطبقة السُّفْلى من علوم اللُّباب: وهي علوم الأقسام الثلاثة التي سمَّيناها التوابع المتِمَّة:

– فالقسم الأول: معرفةُ قَصص القرآن، وما يتعلق بالأنبياء، وما يتعلق بالجاحدين والأعداء، ويتكفل بهذا العلم: القُصَّاص، والوُعَّاظ، وبعض المحَدِّثين، وهذا علم لا تَعُمُّ إليه الحاجة.

– والقسم الثاني: هو مُحاجَّةُ الكفار ومجادَلتُهم، ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لردِّ الضَلالاتِ والبِدَع، .. ويتكفل به المتَكَلِّمون.

....

ومقصود هذا العلم: حراسة عقيدةِ العَوَامّ، عن تشويش المبتَدِعَة.

....

– والقسم الثالث: عِلمُ الحدود الموضوعة للاختصاص بالأموال والنساء، للاستعانة على البقاء في النفس والنسل. وهذا العلم يتولاَّه الفقهاء.......

وهذا علم تعمُّ إليه الحاجة لتعلقه بصلاح الدنيا أولاً، ثم بصلاح الآخرة. ولذلك تميز صاحب هذا العلم بمزيد الاشتهار والتَّوقير، وتقديمِهِ على غيره من الوُعَّاظ والقُصَّاص ومن المتكلمين...........

ويتولَّد من بين الفقه والقرآن والحديث: علم يسمى أصول الفقه، ويرجع إلى ضبط قوانين الاستدلال، بالآيات، والأخبار، على أحكام الشريعة.

ثم لا يخفى عليك أن رتبة القُصَّاص والوُعَّاظ دونَ رتبة الفقهاء، والمتكلمين... ودرجة الفقيه، والمتكلم متقاربة. لكن الحاجة إلى الفقيه أعم، وإلى المتكلم أشدُّ وأشدّ.

ويُحتاج إلى كِلَيْهما لمصالح الدنيا:

-أما الفقيه فَلحفظ أحكام الاختصاصاتِ بالمآكلِ والمنَاكِح.

- وأما المتكلم: فلدفع ضرر المبتَدِعة، بالمحاجَّة، والمجادلة، كيلا يستطيرَ شَرَرُهم ولا يعمَّ ضَرَرُهم.

أما نسبتهم إلى الطريق، والمقصد:

-فنسبة الفقهاء: كنسبة عُمَّار الرِّباطا ت، والمصالح في طريق مكة، إلى الحج.

- ونسبة المتكلمين كنسبة بَذْرَقَةِ طريق الحج وحارسه إلى الحجاج. فهؤلاء إن أضافوا إلى صناعتهم: سلوكَ الطريق إلى الله تعالى بقطعِ عَقَبَات النفس، والنُّزوعِ عن الدنيا، والإقبالِ على الله تعالى، فَفَضْلُهم على غيرهم: كفضل الشمس على القمر.

وإن اقتصروا فدرجتهم نازلةٌ جداً.

ب- الطبقة العُليا من عُلومِ اللُّبَاب

وأما الطبقة العليا من نَمَطِ اللُّباب:

فهي السوابقُ، والأصولُ، من العلوم المهِمَّة، وأشرَفُها:

العلمُ باللهِ، واليوم الآخر، لأنه علم المقْصِد.

ودونَهُ: العلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك. وهو معرفةُ تزكية النفس، وقطعُ عقبات الصفات المهلِكات، وتَحْلِيَتُها بالصفات المنَجِّيَات. ....

والعلم الأعلى الأشرفُ: عِلمُ معرفة الله تعالى، فإن سائر العلوم تُرادُ له ومن أجله. وهو لا يُراد لغيره.

وطريق التدريج فيه: التَّرَقِّي من الأفعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات، فهي ثلاث طبقات:

أعلاها: علم الذَّات، ولا يحتملها أكثر الأفهام، ولذلك قيل لهم:

"تفكَّروا في خَلق الله ولا تفكَّروا في ذات الله".....

فهذا أشرف العلوم.

ويتلوه في الشَّرف: **عِلمُ الآخرة. وهو علم المَعَاد** كما ذكرناه في الأقسام الثلاثة. وهو متصل بعلم المعرفة.

وحقيقته: معرفة نسبة العبد إلى الله تعالى عند تحقُّقِهِ بالمعرفة. أو مصيرهِ محجوباً بالجهل.

وهذه العلوم الأربعة، أعني:

(١) عِلمَ الذات (٢) والصفات (٣) والأفعال (٤) وعلم المَعَاد:

أَوْدَعنا من أوائله ومَجامِعِهِ- القدرَ الذي رُزِقنا منه، مع قِصَرِ العُمر، وكثرة الشَواغل والآفات، وقلة الأَعْوان والرُفقاء- بعضَ التَّصانيف، لكنا لم نُظْهِره. فإنه يَكَلُّ عنه أكثرُ الأفهام، ويَسْتَضِرُّ به الضعفاء، وهم أكثر المتَرَسِّمينَ بالعلم. بل لا يصلح إظهاره إلا على من أتقنَ علم الظاهر، وسلك في قَمع الصفات المذمومة من النفس وطُرُقِ المجاهدة، حتى ارتَاضَت نفسُهُ واستقامت على سواء السبيل، فلم يبقَ له حظٌ في الدنيا، ولم يبق له طلبٌ إلاّ الحق، ورُزِقَ مع ذلك فطنة وَقَّادة، وقريحةً مُنقادَة، وذكاءً بليغاً، وفهماً صافياً.

وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده: أن يُظهره إلاَّ على من استَجْمَعَ هذه الصفات، فهذه هي مجامع العلم التي تتشعب من القرآن ومراتبها......

حول ما جاء في هذا الكتاب:

-يعتبر هذا الكتاب سبقا تاريخيا في الحديث عن مقاصد القرآن تصريحا، واستيعابا. علما بأنه قد استفاد من كتب الراغب الأصفهاني، ويظهر ذلك في استعارته بعض عبارات الراغب، من كتاب" الذريعة".

-اعتبرنا هذا الكتاب من جذور التفسير الموضوعي عند السابقين مع أنه لم يذكر كل الآيات التي اعتمد عليها. غير أنه لم يفته أن يذكر هذه الآيات في نهاية حديثه عن جواهر القرآن، ودرره، لتكون أمام القارىء مجالا للتدبر الواعي.

-يكشف هذا الكتاب عن عقلية المؤلف الكبيرة، وقدرته على السبر والتقسيم، ورد الفروع إلى الأصول، والجزئيات إلى الكليات. والربط بين المقدمات والنتائج.

-يحيل المؤلف في كتابه هذا، إلى بعض كتبه الأخر، ككتاب:" الإحياء"، وكتاب: "محك النظر"، وكتاب: "معيار العلم"-علما بأن ما جاء في هذه الكتب موضع نظر عند بعض العلماء والدا رسين..

-يميز المؤلف-تمييزا صريحا و و ا ضحا- بين الوسائل، والغايات، ويصنف العلوم بناء على ذلك، وما ذكره في علوم القشرة والصدف، وعلوم اللباب دليل على ذلك، الأمر الذي لا نجده بمثل هذا الوضوح، عند كثير من العلماء، والدا رسين.

-يجعل علم التفسير الظاهر – الطبقة الأخيرة، من الصَّدفة، القريبة من مُمَاسَّة الدُّرّ- ولذلك يشتد به شَبَهُهُ، حتى يظن الظَانُّون أنه الدُّرّ. وليس وراءَه أنفسُ منه، وبه قنع أكثر الخلق، وما أعظمَ غُبْنَهُم وحِرمانَهم، إذ ظنوا أنه لا رتبة وراء رُتبتهم. ولكنهم بالإضافة إلى من سواهم، من أصحاب علوم الصدف: على رتبة عالية شريفة، إذ علم التفسير: عزيزٌ بالنسبة إلى تلك العلوم، فإنه لا يُراد لها. بل تلك العلوم تُراد للتفسير.

-يجعل العلم الأعلى الأشرفُ: عِلمُ معرفة الله تعالى، فإن سائر العلوم تُرادُ له ومن أجله. وهو لا يُراد لغيره. وطريق التدريج فيه: التَّرَقِّي من الأفعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات، فهي ثلاث

طبقات: أعلاها: علم الذَّات، ولا يحتملها أكثر الأفهام، ولذلك قيل لهم: "تفكَّروا في خَلق الله ولا تفكَّروا في ذات الله"..... فهذا أشرف العلوم. ويتلوه في الشَّرف: عِلمُ الآخرة. وهو علم المِعَاد..

ثم يقول :وهذه العلوم الأربعة، أعني:

(١) عِلمَ الذات (٢) والصفات (٣) والأفعال (٤) وعلم المِعاد:

أَوْدَعنا من أوائله و مَجَامِعِهِ- القدرَ الذي رُزِقنا منه، مع قِصَرِ العُمر، وكثرة الشَواغل والآفات، وقلة الأَعْوان والرُفقاء- بعضَ التَّصانيف، لكنا لم نُظِهره. فإنه يَكَلُّ عنه أكثرُ الأفهام، ويَسْتَضِرُّ به الضعفاء، وهم أكثر المتَرَسِّمِينَ بالعلم. بل لا يصلح إظهاره إلا على من أتقنَ علم الظاهر، وسلك في قَمع الصفات المذمومة من النفس وطُرُقِ المجاهدة، حتى ارتَاضَت نفسُهُ واستقامت على سواء السبيل، فلم يبقَ له حظٌ في الدنيا، ولم يبق له طلبٌ إلاّ الحق، ورُزِقَ مع ذلك فطنة وَقَّادة، وقريحةً مُنقادَة، وذكاءً بليغاً، وفهماً صافياً،. ثم يقول محذرا:

وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده: أن يُظهره إلاَّ على من استَجْمَعَ هذه الصفات، فهذه هي مجامع العلم التي تتشعب من القرآن ومراتبها......

ولا شك بأن لهذا الكتاب مزايا أخرى كثيرة، لا يمكن استيعابها في مثل هذا البحث المحدود. ولعل فيما ذكرناه غنية.

التفسير الموضوعي في دراسات المعاصرين:

كثرت دراسات التفسير الموضوعي المعاصرة، وسنقتصر في هذه العجالة على أهم هذه الدراسات، باعتبارها دراسات أصيلة، بذل فيه جهد حقيقي، وتوصل بها الدارسون إلى نتائج هامة.

-من هذه الدراسات ما جاء في تفسير المنار، الذي أولى عناية خاصة للحديث عن مقاصد القرآن، وللسنن الإلهية، التي تحكم الحياة البشرية، ويعتبر هذا الكتاب نقلة مهمة في تاريخ التفسير.

-ومن هذه الدراسات كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب، حيث يقدم في مطلع كل سورة تعريفا بمقاصد السورة، متحدثا عن المحور الذي يجمع بين أجزائها، مستعرضا لكل ما جاء فيها تحت عنوان دروس السورة، وربما عقد مقارنات بين مقاصد السور، إذا اشتركت في موضوع واحد، كأن يقول : إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها .. نجد سورة الأعراف – وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك – تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر.. إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى ، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.

-ومن الدراسات الموضوعية المعاصرة: ما جاء في دراسات بديع الزمان سعيد النورسي في رسائل النور، والتي جمعت بعد ذلك في ثماني مجلدات. وتعتبر هذه الدراسات منجما غنيا لمقاصد القرآن....

– ومنها ما جاء في دراسات عبد الحميد الفرا هي، والتي سنأتي على ذكر شيء منها فيما بعد.

وقبل المضي في ذلك، لابد لنا من التعرف على منهجية القرآن التي تميز بها في طريقة عرضه للمقاصد.

منهجية القرآن في عرضه للحقائق والمقاصد:

إن دراسة قيم الإسلام و مفهو ماته ، ومفرداته من خلال النص القرآني وترتيب آياته وسوره لا يكشف عن سر الحسن وسحر البيان – وهو أمر مطلوب – فحسب ، وإنما يتعدى ذلك إلى دلالات جمة ، فكم من المعاني الدقيقة والحكم الغامضة مودعة فيه . والواجب على المتأمل في القرآن أن يتدبره كلمة كلمة ، ويؤمن بأن تحت كل منها حكماً وفي نظمها سراً ، وإذن يوشك أن يتجلى عليه بعض المكنون حسب استعداده .."(١)

ولقد أدرك أهمية هذه الحقيقة – حقيقة الدراسة للإسلام وقيمه ومفهوماته من خلال القرآن– وما يترتب على ذلك من تصور صحيح متوازن، بعيد عن الإفراط والتفريط، بعض علماء النهضة المعاصرين . ونرى أنموذجاً لهم في ما كتبه **العلامة عبد الحميد الفر اهي الهندي** ، وما كتبه **بديع الزمان سعيد النورسي، وما كتبه سيد قطب في معظم مؤلفاته** وبخاصة " مقومات التصور الإسلامي " و" في ظلال القرآن " وسنقتطف فيما يلي فقرات مما كتبه هؤلاء الأعلام عن هذه الحقيقة :

مع بديع الزمان النورسي :

يرى النورسي " أن القرآن الكريم قد حافظ على التوازن في بيانه التوحيد بجميع أقسامه ، مع جميع مراتب تلك الأقسام وجميع لوازمه ، ولم يخل باتزان أي كان منها .. ثم إنه قد حافظ على الموازنة الموجودة بين الحقائق الإلهية السامية كلها .. وجمع الأحكام التي تقتضيها الأسماء الإلهية الحسنى جميعها ، مع الحفاظ على التناسب والتناسق بين تلك الأحكام .. ثم إنه قد جمع بموازنة كاملة شؤون الربوبية والأ لوهية .

فهذه " المحافظة والموازنة والجمع ": خاصية لا توجد قطعاً في أي أثر كان من آثار البشر ، ولا في نتاج أفكار أعاظم المفكرين كافة ، ولا توجد قط في آثار الأولياء الصالحين النافذين إلى عا لم الملكوت ، ولا في كتب الإشراقيين الموغلين في بواطن الأمور ، ولا في معارف الروحانيين الماضين إلى عا لم الغيب .

بل كل قسم من أولئك قد تشبث بغصن أو غصنين فحسب ، من أغصان الشجرة العظمى للحقيقة ، فانشغل كلياً مع ثمرة ذلك الغصن وورقه ، دون أن يلتفت إلى غيره من الأغصان ؛ إما لجهله به، أو لعدم التفاته إليه . وكأن هناك نوعاً من تقسيم الأعمال فيما بينهم .

نعم ! إن الحقيقة المطلقة: لا تحيط بها أنظار محدودة مقيدة . إذ تلزم نظراً كلياً كنظر القرآن الكريم ليحيط بها . فكل ما سوى القرآن الكريم – ولو تلقى الدرس منه –لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلا

(١) جمهرة البلاغة للفراهي : ٥٠ بشيء من التصرف .

طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة ، فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه ، وينحصر فيه ، فيخل بالموازنة التي بين الحقائق، ويزيل تناسقها، إما بالإفراط، أو بالتفريط " (١).

ويقول النورسي في مكان آخر :

" إن من يتأمل في كتب حكماء الإشر اقيين ، وكتب المتصوفة الذين اعتمدوا على مشهود اتهم وكشفياتهم، دون أن يزنوها بميزان السنة المطهرة: يصدق حكمنا هذا دون تردد . إذاً فعلى الرغم من أنهم يسترشدون بالقرآن، ويؤلفون في جنس حقائق القرآن ، إلا أن النقص يلازم آثارهم ، لأنها ليست قرآناً "(٢) .

مع سيد قطب :

يرى سيد قطب أن للمنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي خصائص تميزه عن أي منهج آخر، وقد ذكر منها الخصائص التالية :

أولاً : إنه يعرض " الحقيقة "كما هي في عالم الواقع ، في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها ... وهو مع هذا الشمول لا يعقد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها ..

ثانياً : إنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية " والتأملات " الفلسفية " ، والومضات " الفنية " جميعاً . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب " الكل " الجميل المتناسق بحديث مستقل ، كما تصنع أساليب الأداء البشرية .. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول ، يرتبط فيه عالم الشهادة، بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياة الناس في الأرض، بحياة الملأ الأعلى .. في أسلوب تتعذر مجاراته، أو تقليده ...

ثالثاً : إنه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها، يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها – في الكل المتناسق – مساحته ، التي تساوي وزنه في ميزان الله – وهو الميزان –.....

ومن ثم تبدو " حقيقة الألوهية " وخصائصها، وقضية " الألوهية والعبودية " بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة ، وتجلية هذه القضية: هو موضوع القرآن الأساسي ...

وتشغل حقيقة عالم الغيب– بما فيه القدر، والدار الآخرة – مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة: أنصبة متناسقة ، تناسق هذه الحقائق، في عالم الواقع ...

---

(١) الكلمات : ٥١٢ .

(٢) الكلمات : ٥١٣ .

وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ، ولا تهمل ، ولا تضيع معالمها ، في المشهد الكلي، الذي تعرض فيه هذه الحقائق ...

رابعاً : إنه يتميز بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية – مع الدقة، والتقرير، والتحديد الحاسم –وهي تمنح هذه الحقائق: حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ، ولا الأسلوب البشري في التعبير ... ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم . ومع ذلك لا تجور الدقة: على الحيوية والجمال . ولا يجور التحديد: على الإيقاع والروعة ..

ولا يمكن أن نصف نحن – في الأسلوب البشري – ملامح المنهج القرآني ، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج ... كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " شيئاً ، مما يبلغه القرآن في هذا الشأن ..." (١) .

مع الفراهي :

أما الفراهي فيرى في نظم القرآن دليلاً على نظم الديانة كلها، وذلك حينما يقول :

" القرآن هو الأصل للإسلام، والإيمان ، أي : الشرائع، والعقائد ، قال تعالى :

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) الشورى: ٥٢ (٢)

وإذا كان القرآن على المطابقة التامة للدين، صار النظر في نظامه: باعثاً على النظر في الشرائع والعقائد ، فما كان أصلاً، وأساساً ، نبه القرآن على كونه كذلك ، فإذا تدبرت في القرآن هديت إلى حكمة الدين ونظام أموره " (٣).

وهكذا يظهر لنا من خلال هذه الفقرات المقتبسة لأعلام النهضة المعاصرة مقدار الخلل الذي حصل في المفهومات والقيم الإسلامية، نتيجة لدراستها بمعزل عن القرآن ، الأمر الذي يستوجب تصحيحاً، بالعودة بها إلى القرآن، الذي يعيد إليها توازنها ، ويعطي كلا منها نصيبه الذي يستحقه في ميزان القرآن، فلا تطغى حقيقة على أخرى ، ولا تدغم حقيقة في حقيقة غيرها .

موازنة بين دراز، والفر اهي، وسيد قطب: في تبين: محور سورة البقرة :

نريد في هذه الصفحات: أن نبين كيف تختلف الاجتهادات– بين العلماء في الحديث عن محور السورة– الذي سبق أن ألمحنا: إلى أهميته .

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ٦٥ – ٦٨ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) دلائل النظام : ٤٦ .

وأول ما نلاحظه: أن هناك توافقاً بين دراز، والفر اهي، في تقسيم السورة إلى: - مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة -عند دراز- .

وكذلك الفر اهي يعبر عنها بقوله:

- " مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة ".

ولنبدأ أولاً بما قاله الدكتور دراز:

رأي الدكتور محمد عبد الله دراز:

نظام عقد المعاني في سورة البقرة:

اعلم أن هذه السورة -على طولها- تتألف وحدتها من :

مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة - على هذا الترتيب- :

-المقدمة - : في التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح، لا يتردد فيه ذو قلب سليم . وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أومن كان في قلبه مرض.

-المقصد الأول- : في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام .

-المقصد الثاني- : في دعوة أهل الكتاب: دعوة خاصة إلى ترك باطلهم، والدخول في هذا الدين الحق .

-المقصد الثالث-: في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

-المقصد الرابع-: ذكر الوازع، والنازع الديني- الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع- ويعصم عن مخالفتها .

- الخاتمة - : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة: لتلك المقاصد . وبيان ما يرجى لهم: في آجلهم، وعاجلهم.

وإذا كان هذا هو تصور- الدكتور محمد عبد الله دراز- لهذا النظام في السورة. فماذا يقول عبد الحميد الفر اهي؟

رأي عبد الحميد الفر اهي :

اعلم أن هذه السورة: جملة واحدة، متصلة، منتظمة بعضها ببعض، على غاية حسن النظام ، كما سيتضح لك من تفسيرها . ولكنها مع ذ لك مرتبة على ستة أجزاء: مقدمة، وأربعة أبواب، وخاتمة :

أما ا لمقدمة : فهي جملة الكلام- في إثبات القرآن، والنبوة - وما يتعلق بها . وذلك حقيقة الإيمان .

فالإيمان: عبارة عن الإيمان، بهذا الكتاب، الذي يتضمن الإيمان: بسائر الكتب، والنبو ات . وبما أمر الله به، ونهى عنه، وبأصول العقائد، وصحاحها.

وأما الأبو اب : فجاءت بالترتيب- حسبما جاء نعت النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة إبراهيم عليه السلام-عند بناء الكعبة - كما قال الله حكاية عن ذلك الدعاء- :

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام: أخَّر التزكية: لكونها غاية .

وفي إنجاز ذلك: قد مها ، لتعلم أن هذا النبي: جعلها أول أمره، وأتمها. وإنما تتم: بعد العلم، والعمل .

وفي ذلك إشارة إلى أن هذا النبي– هو آخر الأنبياء – فإنه يفعل ما هو كمال سعادة النفس . ثم تقديم التزكية، في الإ نجاز : يشير إلى أن هذا النبي: هو الذي دعا له إبراهيم عليه السلام ،فإنه جعل غاية ما في دعائه: أول أمره، وأصل قصده . فبدأ به . ثم جعل:

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) (١٦)

ليتم التزكية — وسيأتيك مزيد في توضيح ذلك —.

وكما أن التزكية لها بداية ونهاية . واتصال بتلاوة الآيات، فكذلك الحكمة لها بداية، ونهاية. تبتدئ ببداءة التزكية ، وتتم بتمامها .

–فتلاوة الآيات: تمهيد لما يتبع، من التزكية، والتعليم .

- وتعليم أصول الدين: خطوة أولى، للتزكية.
- وتعليم الأحكام: هو الخطوة الثانية لها .
- وتعليم الحكمة: هو الخطوة الثالثة لها .
- وبه تمام التزكية، التي تحصل بالعلم، والعمل في هذه الحياة .

فبحسب مناسبة هذه الأمور الأربع، جعل ترتيب الأبواب الأربع :

فالباب الأول : في تلاوة الآيات البينة، والدلائل الواضحة، على إثبات هذه الرسالة، الموعود بها في الكتب السابقة ،– حسب وصفه الأول–:

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ.

والباب الثاني : في بداية التزكية– وهي الذكر، والشكر، والصبر، والتوكل، والتوحيد، والتفكر، والإيمان، والأمانة، والبر، والتقوى ، وذلك حسب وصفه الثاني، وهو قوله تعالى :

وَيُزَكِّيهِمْ

والباب الثالث : في ما كتب الله عليهم من السياسة العادلة ، والشرائع المطهرة ، والآداب النقية، التي تعين على الحكمة، من جهتيها النظرية والعملية . وذلك حسب وصفه الثالث. وهو قوله تعالى :

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ أي الشرائع .

---

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٩ .

والباب الرابع : في تحصيل الحكمة، التي تحصل بإكمال الطاعة . وهي الخروج الكلي عن سلطان الشهوات، ببذل النفس، والمال ، ورعاية المواساة، والرفق في المعاملات .

وحينئذ تنجلي عن النفس: كل غشاوة، وتتزكى عن كل رجس، فتدخل حظيرة القدس ، وتطمئن في حرم الأنس . فتحيا حياة عليا . وهل هي إلا الجريان بما يرضى به الرب تعالى ، حتى تخلص النفس عن أسر الهوى، كما قال تعالى :

" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ"[١٧] .

فالأمة تحيا بإسلامها لربها ، وبذل النفوس، والأموال قرابين لله، فيبارك الله لها، فيما أسلمت، حسب سنة الله .

فيعطيها النور البازغ، والزكاة التامة، والنصر، والملك، ليبارك بهم الأمم . هذا هو الوصف الرابع أعني: تعليم الحكمة، وتحقيق التزكية، الثانية، التالية للحكمة، التي هي النعمة الكبرى .

فهذه السورة: كأنها مرآة صفات النبي صلى الله عليه وسلم . ومرآة لتمام القرآن، لما جمعت أمور الرسالة كلها – وأولى السور بالفاتحة – كما مر في الفصل الأول– . فهذا بيان الأبواب الأربعة –......

وأما الخاتمة: فهي جامعة لما سبق، من الاعتقاد، وعيون الشرائع ، والثبات عليها . وبذل النفوس للدفاع عنها. وفيها الدعاء للنصر، والمغفرة، كنتيجة لهذا كله .

فالآن تبينت: أن نظم هذه المطالب: على غاية السداد، وصحة الترتيب.

فإنك ترى السابق منها، وسيلة إلى اللاحق . فإن الأدلة وسيلة إلى الإيمان. والإيمان: يؤدي إلى الأعمال الصالحة. والأعمال الصالحة: تتم بالحكمة. وبها تتم التزكية– التي هي كمال النفس، وفلاحها– بإكمال طرفيها العلمي، والعملي .

فهذا: نظام السورة، من حيث: المجموع .

وأما النظم التفصيلي لأجزائها ، فسيأتيك– عند النظر في جزء، جزء من السورة– [١٨] .

هذا ما يقوله الفر اهي . والملاحظ: **أن الفر اهي**: سلك مسلكا مغايراً، في مراعاة ترتيب: موضوعات السورة، حيث ربطها بدعوة إبراهيم – عليه السلام– . وأن هذا الترتيب: موافق لما دعا به إبراهيم عليه السلام، وقد أفاض في تحليل التفاصيل، التي تؤكد حسن استنباطه .

على حين نجد **الدكتور دراز**: لم يؤكد على هذه الناحية، التاريخية. وإنما نظر إلى الأمور: نظرة موضوعية، مباشرة، بغض النظر عن الناحية التاريخية .

التعريف بسورة البقرة من كتاب " في ظلال القرآن ":

١٧– سورة الأنفال : آية ٢٤

١٨–نظام القرآن : ٤٦ — ٥٠ باختصار

أما سيد قطب فقد نظر إلى السورة: نظرة أخرى. وذلك من خلال منهجيته الحركية، التي كان ينطلق منها ، إنه يرى في القرآن كله: توجيهات دعوية ، تنطلق من واقع قائم، مخالف لتعاليم الإسلام ، وتهدف إلى إعادة إخضاع هذا الواقع، للدعوة الإسلامية :

"هذه السورة تضم عدة موضوعات :

ولكن المحور الذي يجمعها: **محور واحد، مزدوج: يترابط الخطان الرئيسيان فيه: ترابطاً شديداً**

– فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية، في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها – صلى الله عليه وسلم – وللجماعة المسلمة الناشئة، على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف، بما فيه تلك العلاقة القوية، بين اليهود، والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين، من جهة أخرى ..

– وهي من الناحية الأخرى: تدور حول موقف الجماعة المسلمة، في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة، والخلافة في الأرض ، بعد أن تعلن السورة: نكول بني إسرائيل عن حملها ، ونقضهم لعهد الله، بخصوصها ، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم – عليه السلام – صاحب الحنيفية الأولى ، وتبصير الجماعة المسلمة، وتحذيرها من العثرات، التي سببت تجريد بني إسرائيل، من هذا الشرف العظيم ..

– وكل موضوعات السورة: تدور حول هذا المحور المزدوج، بخطيه الرئيسيين – كما سيجيء في استعراضها التفصيلي– .

ولكي يتضح مدى الارتباط: بين محور السورة، وموضوعاتها من جهة ، وبين خط سير الدعوة: أول العهد بالمدينة ، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها، من الجهة الأخرى ..

يحسن أن نلقي ضوءاً– على مجمل هذه الملابسات– التي نزلت آيات السورة: لمواجهتها ابتداء . مع التنبيه الدائم: إلى أن هذه الملابسات– في عمومها– هي الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية، وأصحابها يواجهونها — مع اختلاف يسير — على مر العصور، وكر الدهور، من أعدائها، وأوليائها على سواء . مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية، هي دستور هذه الدعوة، الخالدة. ويبث في هذه النصوص: حياة تتجدد، لمواجهة كل عصر، وكل طور. ويرفعها معالم للطريق: أمام الأمة المسلمة، تهتدي بها في طريقها الطويل، الشاق، بين العداوات المتعددة المظاهر، المتوحدة الطبيعة ..

وهذا هو الإعجاز: يتبدى جانب من جوانبه، في هذه السمة الثابتة، المميزة، في كل نص قرآني [١٩].

وهكذا تختلف الاجتهادات– في استنباط محور السورة– تبعا للمنطلقات التي ينطلق منها كل باحث، وتبعا لثقافته، واهتماماته، وأهدافه، التي لا يمكن القفز فوقها، لأنها جزء من تكوينه.

---

(١٩) في ظلال القرآن : ١ / ٣٠ –٣١ .

ومع اختلاف وجهات النظر هذه – فلا يمكننا أن نضعها موضع التناقض –وإنما يمكننا أن نعتبر هذا من قبيل اختلاف التنوع، الذي يثري، ويكمل بعضه بعضاً ، حيث لا نرى تعارضاً حقيقياً، عند التأمل في ذلك كله .

بل يمكننا أن نقول :

– إن الفراهي– في موقفه–: كان ينظر إلى الماضي.

– وإن دراز: كان ينظر إلى الحاضر.

– على حين سيد قطب: ينظر إلى المستقبل.

مقاصد القرآن في دراسات الفرا هي:

لما كان هدفنا من هذه الدراسة أن نشير إلى الدراسات الجادة المفيدة، والتي تعتبر بحق إضافة جديدة إلى المعرفة، فإننا سنقتصر على ما كتبه العلامة – عبد الحميد الفر اهي–في" فاتحة نظام القرآن":

يقول الفرا هي في " فاتحة نظام القرآن"–وقد جعلها مقدمات بين يدي تفسيره–:

المقدمة في عيون تعليم القرآن :[20]

وهي عقائد، وأعما ل . والأعمال: شخصية، ومنزلية، ومدنية.

فمن العقا ئد : التوحيد، والنبوة، والمعاد. مع دلائلها.

ومن الأعمال : الصلاة.

ومنها: الحج، والزكاة.

ومنها الصوم، ومكارم الأخلاق. وهي: البر، والمعروف. وخلا فهما المنكر.

والشهادة بالحق. فهذه أعمال شخصية، ولو بالجماعة.

ثم القسط. ثم التعاون .

فاعلم أنه يتعلق بالتوحيد: بحث الجبر والقدر، ووحدة الوجود . وبا لنبوة : الشفاعة. وبالمعاد: حقيقة الجنة، والنار.

وبالقسط : المواريث، والنكاح، والمعاملات.

وبالتعاون: الخلافة، والسياسة، والجهاد.

ثم للأعمال ينابيع في الخلق: كالمحبة، والصبر، والعزم، والتقوى، والعدل .

ثم بعض هذه الأمور مشتبك ببعضها في الأصول.

وإن شاء الله تعالى: أتكلم بما فهمت من كتاب الله، في هذه الأمور حسب الحاجة".

٢٠– فاتحة نظام القرآن للفرا هي

وهكذا نرى كيف عبر الفر اهي عن مقا صد القرآن، بقوله: "عيون تعليم القرآن". وجعلها تحتها: العقائد، والأعمال. ثم جعل الأعمال: شخصية، ومنزلية، ومدنية.

أما العقا ئد : فهي شاملة للتوحيد، والنبوة، والمعاد. مع دلائلها.

وكذلك جعل العبادات، ومكارم الأخلاق من الأعمال. وكذلك: القسط. وتحته: المواريث، والنكاح، و المعاملات . و مثله: التعاون. وجعل تحته: الخلافة، والسياسة، والجهاد.

ثم جعل للأعمال ينابيع في الخلق: كالمحبة، والصبر، والعزم، والتقوى، والعدل .

ثم خص الفر اهي مقصد الجهاد بقوله:

الجهاد : زعمت القدماء أن آية السيف نسخت كثيرا من آيات الوعظ المحض. وزعمت شرذمة من متكلمي عصرنا: أنها لم تنسخ، ولم يكن القتال إلا دفاعا عن بيضة الإسلام. وأما جهاد الخلفاء، والصحابة: فما كان إلا كقتال الملوك، ولم يكن في شيء من الجهاد في الدين.

فاعلم- هداك الله وإياي-: أن الله بعث نبينا لما وعد بابراهيم، ووارثا لعهده:

(وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود)

وبعثه نبيا خاتما، ومظهرا دينه على الدين كله، وأمره بالوعظ حتى يسمعوا كلامه. ولم يأذن له بالقتال، حتى تتم الحجة، وتبلغ منتهاها.

وأمره إذا باستخلاص الكعبة، ورد الحنيفية، إيفاء لعهد إبراهيم.

وأذن بالقتال بعد الهجرة. فإن القتال قبل الهجرة: ظلم وفساد. إلا أن يكون حفظا للنفس. فوجب القتال لا للدفاع، بل لفتح الكعبة. ثم لرد الحنيفية في أولاد إسماعيل. وأما بغير ذرية إسماعيل، فلإ قامة القسط، ورفع الفساد عن الأرض.

فلا إكراه في الدين لأهل الكتاب، ولكل من ليس من ذرية إسماعيل، وعليهم الجزية.

وأما ذرية إسماعيل: فمحجو جون، برجل منهم. وهو قلبهم ولسانهم. ولا تظنن النبي رجلا أجنبيا، يرسله الله للوعظ. ولكنه الثمرة اليانعة من شجرة فطرتهم. نشأ من جرثومتهم، وتربى فيهم، من بين غيهم، ورشدهم. ولكن طهارة فطرته: جلبت إليه محاسنهم. ونفت عنه أباطيلهم، حتى كاد أن يضيء ولو لم تمسسه نار.فما هو إلا نقطة قواهم، وقطب رحاهم، وعقل اختيارهم، وقلب إرادتهم.

فبهداية الله إياه: خضعت له تعالى أمته، في ذات نبيهم. كما تخضع الأعضاء:

إذا خضع له القلب.- وبسط الكلام في بحث النبوة- .

ثم من جهة الظاهر: فانحازت رياسة العرب إلى قريش. والرياسة الدينية إلى عبدالمطلب، ومنه إلى النبي، ولذلك كان يقول النبي :

أنا ابن عبدالمطلب   أنا النبي لاكذب

ثم هو الداعي إلى ملة أبيهم، وعهدهم القديم. فالمخالف: هو الباغي، والمفسد القا طع .

ولا يكون الجهاد: لرفع الفساد من الأرض، إلا بعد أن يرفع الفساد، من بين المجاهدين.

فلا يستحق له إمام ولا متبعوه: إلا بعد أن يكونوا قائمين بالقسط.

ولا يجو ز القتال لأحد في داره، إلا بعد الهجرة، كما ترى في قصة إبراهيم، وآيات الهجرة.- انظر المقدمة على الهجرة - وحالات النبي.

فإن الجهاد من غير الملك المطاع: بغي وعدوان، وفتنة، وإهانة للمعروف. ولا يؤذن للقتال إلا بعد القوة، -كما ترى في قصة شعيب- :

" وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا".

فا لجهاد واجب بشرائطه الثلاث، إلى يوم القيامة. وليس للإكراه في الدين، ولا للفساد، ولا للبغي. ولكن شهادة الحق واجبة التبليغ، وبالمجادلة الحسنة ".

وهكذا يقدم الفر اهي رؤيته للجهاد ومقاصده، وأن النبي-صلى الله عليه وسلم-إنما هو استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، ووارثا لعهده، وأمره إذا باستخلاص الكعبة، ورد الحنيفية، إيفاء لعهد إبراهيم.

وأذن له بالقتال بعد الهجرة. فإن القتال قبل الهجرة: ظلم وفساد. إلا أن يكون حفظا للنفس. فوجب القتال لا للدفاع، بل لفتح الكعبة. ثم لرد الحنيفية في أولاد إسماعيل. وأما بغير ذرية إسماعيل، فلإ قامة القسط، ورفع الفساد عن الأرض".

ونكتفي بما ذكره الفراهي-هنا- علما بأن له رؤية واضحة في **عمود السور القرآنية إجمالا**، وما تتضمنه كل سورة من المطالب. والتي يريد بها **المقاصد الجزئية**. وذلك في كتابه **" دلائل النظام"**.

-أثر التفسير الموضوعي في بيان مقاصد القرآن.

لاشك أن للتفسير الموضوعي بألوانه المتعددة، أهمية كبيرة كانت الدافع الأساسي لوجوده، فإذا كان التفسير التحليلي: ولد تاريخياً لتلبية حاجة قائمة؛ فكذلك التفسير الموضوعي: لم يفرض نفسه على الساحة المعاصرة من فراغ . وإنما الحاجة الماسة- في سياق الحاضر، والمستقبل- هي التي دفعت إلى ميلاده، ووجوده.

وتظهر أهميته وفوائده:

- في جمع الآيات المتفرقة - في القرآن - ذات الموضوع الواحد، لينظر إليها في وحدتها الجامعة، حيث تتضح أبعاد الصورة، من جميع جوانبها. فتبدو كل آية- ضمن هذا المجموع- لبنةً في البناء، وعنصراً في التكوين، تؤدي غرضاً متصلاً، بالكل الذي يجمع بينها. فيظهر الترابط بين أجزاء الصورة، وكأنها أعضاء في جسم حي. كل عضو: يؤدي وظيفته، ويتكامل مع وظائف الأعضاء، الأخر.

- إن الهداية القرآنية- التي هي الهدف من نزول القرآن-: إنما تتضح أبعادها الكاملة، وعناصرها الفاعلة. ووزن كل عنصر فيها، بالنسبة لبقية العناصر،

من خلال هذه الصورة الجامعة، والتي تنعكس بعد ذلك تصوراً متوازناً، للقيم الإسلامية، الأمر الذي سينعكس بعد ذلك: سلوكاً سوياً، في سلوك المؤمنين، باتجاه الهدف المنشود، والغاية المرجوة .

– ثم إن التفسير الموضوعي بجمعه للآيات الموزعة، ذات الموضوع الواحد في مكان واحد، يسهل على الناس: سبيل المعرفة، ويجعلهم أقدر على تصور واجباتهم، التي يتطلبها منهم الإسلام، سواء في علاقاتهم مع الله، أو مع الأهل، والأقرباء، أو مع غيرهم من أفراد المجتمع وفئاته. وكذلك في علاقاتهم مع الآخرين، من غير المسلمين.

– كذلك فإن هذه التصورات، التي تنشأ من خلال الصورة الكاملة، تجعلنا أقدر على مواجهة المشكلات، والتحديات المعاصرة، التي تأتينا أيضاً بأطروحات عامة، جامعة، ولا تأتينا بجزئيات متناثرة، من هنا وهناك .

– ثم إن التفسير الموضوعي، يكشف لنا عن المناسبة الحقيقية، التي تربط بين الآيات، وذلك بعد أن نتعرف على المحور الأساس، الذي تلتقي عنده عناصر السورة، وجزئياتها. فلا نتكلف الربط بين الآيات، لأنها كلها ترتبط بالمحور. فإذا كان اكتشافنا للمحور صحيحاً: أصبح الترابط بين الآيات تحصيل حاصل.

– كذلك فإن التفسير الموضوعي: يحل لنا كثيراً من المشكلات التي تظهر لنا في بعض النصوص، والآيات، نتيجةً لعدم رؤيتنا لمحور السورة وموضوعها الأساس، فإن ملاحظة وحدة الموضوع والمحور، ومراعاة تسلسل المعاني في السورة: كفيلان بإيصالنا إلى جادة السلامة، لحل الإشكال.

– أيضاً فإن التفسير الموضوعي كفيل لنا، بتصحيح بعض الأخطاء، التي وقع فيها بعض المفسرين، نتيجة عدم إدراكهم وحدة الموضوع، وإغفالهم سياق الكلام.

– إن التفسير الموضوعي مع أهميته وفوائده، فهو يكشف لنا جانباً من إعجاز القرآن، حين تجمع آياته المتعددة، من سوره المختلفة، فيعطينا تلك الصور الرائعة، من الدراسات القيمة، التي لا تفاوت فيها، ولا اختلاف. ولا تشاكس فيها، ولا تناقض. مما جعل العلامة بديع الزمان النورسي يعتبره نوعاً من الإعجاز المعنوي، ويرى أن كتبه إنما تمتاز بهذا الجانب الهام.

نماذج من دراساتي في التفسير الموضوعي:

ولعله من المناسب–هنا– أن نذكر بعض النماذج لما سبق أن كتبناه في التفسير الموضوعي، ليكون دليلا تطبيقيا على التوجه الذي أردنا تأكيده من الناحية النظرية.

وسنستعرض في ما يأتي أربعة نماذج:

– النموذج الأول : تلخيص لما جاء في دراسة ثلاث آيات متشابهات–آيات الصابئين–

–النموذج الثاني: دراسة لمصطلحي: الفقير، والمسكين، في القرآن.

– النموذج الثالث: دراسة عن مفهوم الهداية، والإضلال في القرآن .

–النموذج الرابع : دراسة مجملة لمقاصد سورة الكهف.

ولنبدأ بالنموذج الأول :

-تأويل ثلاث آيات متشابهات -آيات الصابئين-:

وهذه الآيات الثلاث هي:

- آية البقرة: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (٦٢)

-وآية المائدة: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (٦٩)

- وآية الحج: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (١٧)

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الآيات الثلاث مكررات، وأنها من قبيل المتشابه اللفظي، الذي تمتاز فيه آية البقرة عن الآيتين الأخريين بزيادة" فلهم أجرهم عند ربهم".

وتمتاز فيه آية المائدة عن الآيتين الأخريين بتقديم "والصابئون" على" النصارى"، وجعلها مرفوعة بالواو.

كما تمتاز آية الحج بزيادة "المجوس، والذين أشركوا" عن الآيتين الأخريين.

وإن الدراسة الموضوعية للآيات الثلاث مجتمعة كشفت لنا عن مقصد كل آية، وعن حكمة اختلاف ترتيب الطوائف فيها، كما بينت خصوصية مجيء" والصابئون" مرفوعة بالواو. وفيما يلي إيجاز لذلك:

-تذكر الر واية الصحيحة لسبب نزول آية البقرة أن سلمان الفارسي لما وصل المدينة المنورة، ذهب للقاء النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه خرج من بلاده فارس باحثا عن الدين الحق، وأنه نزل مع الرهبان وعاش معهم، وأنهم كانوا يبشرون به، ولو أدركوه لآمنوا به. فما مصيرهم عند الله ؟

فجاءت آية البقرة مبينة هذا المصير: " فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

فآية البقرة إذن في المبشرين بالنبي قبل البعثة، والذين لو أدركوه لآمنوا به. وهذه الطوائف كلها جاءت منصوبة معطوفة على اسم "إن". فليس فيها مشكلة إعرابية.

-أما آية المائدة فقد جاءت في سياق الذين أدركوه من هذه الطوائف، ولم يؤمنوا به. ويبدو ذلك واضحا من الآيات السابقة للآية، والآيات اللاحقة لها.

أما مجيء" والصابئون" بالرفع فقد ذكر النحاة فيها وجوها متعددة، وسيبويه اعتبرها مقدمة من تأخير، وتقدير الكلام حسب رأيه:

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. والصَّابِئُونَ كذلك".

ولا يخفى ما في هذا التقدير من التكلف، وتقطيع الكلام.

أما القول الذي رجحناه فهو أن خبر "إن" محذوف يفسره المذكور. وتقدير الكلام:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وهذا يفيد أن الذين آمنوا – وهم أمة محمد–لا خوف عليهم ولاهم يحزنون. أما بقية الطوائف:

وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا" أي: دخل في الإسلام " فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". لأنه لم يعد مقبولا من هذه الطوائف بعد مجيء النبي إلا الدخول في الإسلام، والإيمان بما جاء به.

فالكلام من باب عطف الجمل، لا من باب عطف المفرد ات.– وحذف خبر "إن": كثير في القرآن، وفي كلام العرب–. ولما كان الرفع لا يظهر على" الذين هادوا "، ولا على " النصارى" فقد جاء ت : " والصابئون" بينهما، لتبين أن ما قبلها مرفوع، وما بعدها مرفوع. وهذا هو المسوغ لجعل الكلام جملتين لا جملة واحدة.

–أما آية الحج فقد أ ضافت إلى الطوائف السابقة:" المجوس" و" الذين أشركوا" لأن الحديث هنا يتناول الفصل بين الطوائف كلها يوم القيامة.

وهكذا نجد كل آية من الآيات الثلاث تمثل مرحلة ز منية معينة. فآية البقرة: قبل البعثة. وآية المائدة: بعد البعثة. وآية الحج: يوم القيامة. وبذلك ينتفي التكرار.[٢١]

٢١–تأويل ثلاث آيات متشابهات للباحث

النموذج الثاني:

مفهوم الفقير والمسكين

قال الله تعالى في سورة التوبة :

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) [٢٢] .

قال أبو جعفر النحاس –في كتابه: الناسخ والمنسوخ– في معنى: " الفقراء والمساكين " في هذه الآية : اختلف في ذلك أهل التأويل، والفقهاء، وأهل اللغة، وأهل النظر، فقالوا في ذلك أحد عشر قولاً :

- الأول – روي عن قتادة – قال:

الفقراء الذين بهم زمانة . والمساكين : الأصحاء المحتاجون.

- الثاني – قاله الضحاك – قال:

الفقراء : فقراء المهاجرين . والمساكين : من لم يهاجر.

- الثالث – قال به عكرمة – قال:

الفقراء : من اليهود والنصارى . والمساكين : من المسلمين.

- الرابع – قاله عبيد بن الحسن – :

المساكين : الذين عليهم الذلة والخضوع . والفقراء : الذين يتجملون ويأخذون في السر.

- الخامس – قاله محمد بن مسلمة – :

المسكين : الذي لا شيء له . والفقير : الذي له المسكن والخادم.

- السادس – قاله الشافعي – قال :

الفقير – والله أعلم – : من لا مال له، ولا حرفة تقع منه موقعاً، زمناً كان أو غير زمن، سائلاً كان أو متعففاً. والمسكين : من له مال أو حرفة لا تقع منه موقعاً، ولا تغنيه، سائلاً كان أو غير سائل

–السابع–قاله أبو ثور–

الفقير: الذي له شيْ. والمسكين: الذي لا يصيب من كسبه ما يقوته.

–الثامن–قاله أهل اللغة :

٢٢–سورة التوبة: ٦٠

– المسكين: الذي لا شيْ له. والفقير: الذي له شيْ لا يكفيه. قال يونس: قلت لأعرابي: أفقير أنت؟ فقال: لا. بل مسكين. وأنشد أهل اللغة:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ ** وفقَ العيالِ فلمْ يترِكْ لهُ سبدُ (٢٣)

– التاسع–روي عن ابن عباس– :

المساكين: الطوافون. والفقراء: فقراء المسلمين. وقال فيه النحاس: من أجل ما روي فيه.... وأكثر أهل التأويل على هذا القول....

–العاشر–قال به بعض أهل النظر– :

الفقير: هو الفقير إلى الشيْ، وإن كان يملك مالا، فقد يكون غائبا عنه، ويكون فقيرا إلى أخذ الصدقة. والمسكين: الذي عليه الخضوع والذلة.

– الحادي عشر: الفقير: هو الذي يعطي بفقره فقط. والمسكين: الذي يكون عليه مع فقره خضوع وذلة السؤال....." (٢٤) .

هذا ما ذكره أبو جعفر النحاس من أقوال على سبيل الإيجاز والاختصار، ولو ذهبنا نستقريْ كل ما قيل في الفقير والمسكين لوجدنا أقوالا أخر ذكرتها كتب أحكام القرآن وكتب الفقه، و المقصود هنا بيان مدى تعدد الأقوال وكثرتها، لا استقصاء كل ما قيل.

ثم نجد أن الفقهاء ينقسمون إلى قسمين في الفقير والمسكين: أيهما أحوج من الآخر:

– فبعضهم يرى أن " الفقير " أشد حاجة من " المسكين" من قبل أن الله تعالى بدأ به، وإنما يبدأ بالأهم فالأهم– وبهذا قال الشافعي والأصمعي.

– وذهب أبو حنيفة إلى أن المسكين أشد حاجة، وبه قال الفراء وثعلب وابن قتيبة لقول الله تعالى:

"أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"

وهو المطروح على التراب لشدة حاجته. وأنشدوا:

أما الفقير الذي كانت حلوبته   وفق العيال فلم يترك له سبد

ويقول ابن قدامة: ولنا أن الله تعالى بدأ بالفقراء، ليدل على أنهم أهم، وقال تعالى:

---

(٢٣) قال ابن قتيبة في أدب الكاتب :١ / ٨ " الفقير، والمسكين " لا يكاد الناس يفرقون بينهما، وقد فَرَق الله تعالى بينهما في آية الصدقات فقال جل ثناؤه:" إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ" –التوبة : ٦٠ –وجعل لكل صنف سَهْماً، والفقير: الذي له البُلْغة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له، قال الراعي:

أَمَّا الفقيرُ الَّذي كانتْ حلُوبَتُهُ ... وَفْقَ العِيالِ فَلَمْ يُترَكْ لهُ سَبَد

فجعل له حَلُوبة، وجعلها وَفْقاً لعياله، أي: قوتاً لا فَضْلَ فيه– البيت للراعي النميري– وهو في ديوانه:١ / ٥٦ .

(٢٤)ينظر الأقوال التي قيلت في «الفقير» ، و«المسكين» في تفسير الطبري : (١٤/ ٣٠٥ – ٣٠٨) ، ومعاني النحاس : ٣/ ٢٢٣ ، وزاد المسير : ٣/ ٤٥٦ ، وتفسير القرطبي : (٨/ ١٦٨ – ١٧٠).

" أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا" ([٢٥])

فأخبر أن المساكين لهم سفينة يعملون بها، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين"([٢٦]).

وكان يستعيذ من الفقر....، ولأن الفقر: مشتق من " فقر الظهر" فعيل بمعنى " مفعول": أي: مفقور.... والمسكين: : " مفعيل " من السكون، وهو الذي أسكنته الحاجة. ومن كسر صلبه أشد حالا من الساكن...." .

وهكذا كل فريق ينتصر لرأيه بأدلة، ويرد أدلة الفريق الآخر، وتبقى القضية معلقة في ذهن القاريء وربما يميل أهل كل مذهب إلى التمسك برأي مذهبهم دون المذهب الآخر.

ولا شك بأن كل فريق يحاول أن يجد تأييدا لرأيه من بعض الآيات القرآنية أو من الأحاديث النبوية، أو من أقوال علماء السلف، ولكن ذلك كله لم يحسم الأمر، ولم يحل المشكلة،

وبقيت القضية تحتمل القولين.

ولو أننا طبقنا منهج التفسير الموضوعي واستقرأنا استعمال القرآن للكلمتين فماذا نجد:

- نجد قوله تعالى

" وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ" ٢٦-وقوله تعالى :

" وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (٣٤)

- وقوله تعالى:

" وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ" (٤٤)([٢٧])

-وقوله تعالى:

"وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (١٨) ([٢٨])

-وقوله تعالى :

" وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (٣) ([٢٩])

-وقوله تعالى في الآية /٤/ من المجادلة:

---

(٢٥) سورة الكهف : آية ٧٩ .

(٢٦) أخرجه الترمذي في سننه : ٤ / ٥٧٧ ، حديث ٢٣٥٢ ، وابن ماجه في سننه : ٢ / ١٣٨٢ ، حديث ٤١٢٦ وأرده الألباني في الصحيح : ١ / ٢٩ .

(٢٧) سورة المدثر : آية ٤٤ .

(٢٨) سورة الفجر : آية ١٨ .

(٢٩) سورة الماعون : آية ٣ .

" فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (٤) [٣٠]

–وقوله تعالى:

" وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (٨) إ[٣١]

–وقوله تعالى:

" أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)" –وقوله تعالى:

" فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ" [٣٢]

– وقوله تعالى:

" أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ" [٣٣]

ويلاحظ في كل هذه الآيات اقتران الإطعام بالمساكين، وفي واحدة منها: اقتران الإطعام، أو الكسوة،– في كفارة اليمين–.

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن المسكين: هو الذي يحتاج إلى الطعام أو إلى الكسوة، ومن ثم نجد أن الكفارات كلها تنص على المساكين.

بينما نجد الآيات التي ذكر فيها " الفقير" أو " الفقراء " لم يذكر فيها الإطعام إلا مرة واحدة وذلك في قوله تعالى :

" وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ" (٢٨) [٣٤]

ويلاحظ في هذه الآية تقدم لفظ "البائس" على الفقير، وذلك ليبين مقدار الفقر الذي أصابه، والذي يجعله في مرتبة " المسكين". فكأن البائس الفقير يساوي المسكين.

والذي لا شك فيه أنه يمكن استعمال إحدى الكلمتين مكان الأخرى على سبيل التجوز، وعند انفراد إحداهما عن الأخرى، في الذكر. أما عند اجتماعهما فلا بد من التفريق بينهما، كما هو الشأن في هذه الآية.

والفقير: أعم من المسكين، لأنه المحتاج مطلقا، وعلى هذا يمكن أن يعبر بالفقير عن المسكين على هذا الأساس، والمسكين أخص من الفقير، لأن المراد به: المحتاج إلى الطعام، والكساء، من الضروريات .

---

(٣٠)سورة المجادلة : آية ٤ .

(٣١)سورة الإنسان : آية ٨ .

(٣٢)سورة المائدة : آية ٨٩ .

(٣٣)سورة المائدة : آية ٩٥ .

(٣٤)سورة الحج : آية ٢٨.

وبناء على هذا يكون قوله تعالى:

" إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ" أفرد فيه "المساكين" بالذكر بعد " الفقراء " من باب عطف الخاص على العام، تأكيداً لأهميتهم وشدة حاجتهم، وذلك كما في قوله تعالى:

" تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ "(٣٥)

حيث أفرد الروح بالذكر مع دخوله في الملائكة، بيانا لأهميته.

وأما قوله تعالى:

"أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ":

فقد قيل في توجيهها أقوال:

منها: أنها أضيفت إليهم لأنهم يعملون فيها، وليست الإضافة هنا إضافة ملك...

ومنها: أنه سماهم مساكين على سبيل الشفقة عليهم من الملك الظالم.

ومنها: لو صحت إضافة الملك، فإنهم جمع كبير–صيغة منتهى الجموع– وما يصيب الواحد منهم من ملكيتها، لا يعتد به نظرا لقلته.

وأما استشهادهم بحديث :" اللهم أحيني مسكينا"

فالحديث ضعيف ولا يصلح للاحتجاج– ولفظه لا يصح كما ذهب إلى ذلك ابن تيمية– ويحمل معناه على التواضع لا على شدة الفقر .

وهكذا نرى أن مثل هذا التفسير الموضوعي كفيل بأن يوصلنا إلى قول فصل في مثل هذه القضايا التي تكثر فيها الأقوال، وتتعدد الاجتهادات.

وبذلك يكون القرآن حكما بينها، لا محكوما فيها.[٣٦]

---

(٣٥) سورة القدر : آية ٤ .

٣٦–افتتاحية مجلة الشريعة الكويتية–العدد/١٦/مارس/١٩٩٠

النموذج الثالث:

الهداية.. والإضلال.. في القرآن

يعتذر كثير من الناس عن عدم التزامهم بالإسلام وقيمه وتعاليمه ، بأن الله لم يهدهم
وأنه لو هداهم كما هدى غيرهم لكانوا قائمين بواجبات الدين وتكاليفه ، وربما استشهدو ا
على ذلك بقول تعالى:

" يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء " — النحل : ٩٣-

وبذلك يلقون باللائمة على ماهم فيه من بعد عن الإسلام ، على الله سبحانه وتعالى ، ويظنون بذلك أنهم أقاموا الحجة على الآخرين ، وأراحوا أنفسهم من تبعة الشعور
بالذ نب الذي يمكن أن يؤرق حياتهم ويجعلها جحيما لا تطاق.

ولا شك بأن مثل هذا السلوك إن دل على شيء ، فإنما يدل على سطحية في التفكير ، ورغبة في التفلت من مسؤولية الالتزام ، وما يمكن أن يترتب عليه من قيام بأعباء التكاليف ، وبعد الاستجابة للرغبات والأهواء.

وباديء ذي بدء نقول لهؤلاء : إن مقولتكم هذه ليست شيئا جديدا أبدعته عقولكم ، او أدت إليه معرفتكم وعلومكم ، حتى تفرحوا به وتفتخروا !! فلقد سبقكم إلى ذلك مشركو مكة الذين كانوا يعبدون الملائكة ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله :

"وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" - الزخرف ١٩- ٢٠

كذلك بين في آية اخرى أن مثل هذه المقولة سيحتج بها الناس في المستقبل كما احتج بها السابقون ، قال الله تعالى :

"سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ " -الأنعام -١٤٨- .

ويلاحظ أن كلتا الآيتين تشيران إلى أن مثل هذا القول لا يستند إلى علم ولا تقوم به حجة ، ومن ثم فالقائلون به قائلون بالخرص والتخمين ، والمتبعون له متبعون للظنون والأوهام :

"ما لهم به من علم إن هم إلا يخرصون ".

أما العلم الذي تقوم به الحجة وينقطع به العذر ، فهو ما أخبرنا الله سبحانه في كتابه من أنه فطر الناس جميعا على الإسلام والتوحيد حيث قال سبحانه وتعالى :

" . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ."- الروم: ٣٠ -

فبينت هذه الآية القرآنية أن جميع البشر فطروا على توحيد الله ودين الحق ، فلم يميز الله ابتداء بين أناس وأناس ، بل إن الهداية الفطرية شملت الكون كله بكل ما فيه كما تشير إلى ذلك آيات أخر في القرآن الكريم :

"قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى." طه : ٥٠ ،

"الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ." الرحمن ٥-٦

إلا أن الفارق بين الإنسان وبين مخلوقات الكون الأخر، هو ما خص الله به الإنسان من العقل والتمييز والقدرة على الاختيار بحيث يتقلد عهدة التكليف ، ويكون أهلا لتحمل المسؤولية ، والتعرض لخطر الثواب والعقاب :

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ "- الأحزاب : ٧-

وهذه الهداية الفطرية للإنسان ، كما تشمل معرفة فطرية بالخالق الواحد ، كذلك تشمل معرفة جبلية مجملة بالخير والشر، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ."- البلد : ١٠ "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " الشمس : ٧-٨

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا "- الإنسان :٣- .

وهكذا نرى من خلال هذه النصوص العدالة الإلهية تتجلى واضحة للعيان ، إذ تجعل الهداية الفطرية عامة للناس جميعا من غير تفريق ولا تمييز ، بل إنها تجعله أمرا مشتركا بين مخلوقات الله جميعا ، ولما كانت هذه الهداية من عمل الله ، ولا يد للمخلوق فيها ، لم يرتب الله تعالى عليها مسؤولية ولا حسابا. غير أن هذه الهداية الفطرية ليست هي كل ما أعطاه الله للإنسان ، بل أعطاه بالإضافة إلى ذلك ما يؤكد به هذه الهداية ، فوهبه العقل والحواس ، وجعله قادرا على التفكير والاستنباط ، وتحصيل العلم والمعرفة :

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ."- النحل :٧٨-

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد تولى الله هذا الإنسان بلطفه ورعايته ، فلم يتركه إلى عقله وحواسه، وبخاصة أن هناك أمورا كبيرة تستعصي على العقل والحواس . ومن ثم فقد أرسل إليه رسله ،

وأنزل عليه كتبه ، وبين له الخير والشر ، والحق والباطل ، وجعل ذلك كله في دائرة كسبه واختياره ، وطوع إرادته وحريته . ورتب على ذلك كله مسؤولية الثواب والعقاب قال تعالى في شأن الرسل :

"رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ " النساء: ١٦٥

وقال :

"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ." الإسراء : ١٥

وقال في شأن المهملين لما أعطاهم الله من وسائل المعرفة المؤدية إلى الهداية حكاية لقولهم يوم القيامة :

".وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ " الملك ١٠-١١

وإذا كان الله سبحانه قد أعطى الهداية الفطرية للناس جميعا لا يشذ عنها أحد ، فقد جعل الهداية الشرعية مقصورة على بعض الناس دون بعض كما تشير إلى ذلك الآيات القرآنية :

". يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ."- النحل : ٩٣ -

ومن ثم يثور التساؤل عن العدالة الإلهية في مثل هذه الهداية والإضلال .

ونقول في الإجابة عن هذا التساؤل :

إن الله سوى بين المخلوقات البشرية بما منحهم من هداية فطرية ، وبما منحهم من الحد الأدنى من المواهب العقلية المؤدية لهذه الهداية ، وبما أنزل عليهم من الكتب والرسالات .

وهذا الحد الأدنى المشترك بين البشر كاف في تحصيل ذلك. ومن ثم نرى مؤمنين مهتدين من أصحاب الحد الأعلى، ومن أصحاب الحد الأدنى ، ذلك أن الأمر هنا ليس مرتبطا بدرجة العقل والذكاء ، وإنما هو مرتبط بالاستجابة لنداء العقل، أو عدم الاستجابة لهذا النداء.

كذلك تتم هذه الهداية الشرعية من الله كما يتم الإضلال ، وفقا لموقف الإنسان من الهداية الفطرية التي جبل عليها ، فالذي يستجيب لنداء الفطرة بما يوافقه ويؤكده من العقل والشرع، هو الذي يهديه الله ، والذي لا يستجيب لنداء الفطرة ويخرج عليه بمخالفته للعقل والشرع هو الذي يضله الله ، وذلك موافق للسنة الإلهية:

". إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ." الرعد : ١١ -

وبناء على ذلك تكون الهداية الشرعية من الله ثوابا معجلا في الدنيا للذين أكدوا الهداية الفطرية باستجابتهم لنداء العقل والشرع ، كما يكون الإضلال عقوبة عاجلة في الدنيا ، لمن أداروا ظهورهم لنداء الفطرة، وخرجوا على مقتضياته بعدم استجابتهم لمنطق العقل والشرع :

". إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ،. خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ."- البقرة : ٦-٧-

فالختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار، هي العقوبة المعجلة في الدنيا على الكفر .
والعذاب العظيم: هو العقوبة المؤجلة إلى يوم القيامة .
فالختم إذن لم يكن سببا للكفر، وإنما هو نتيجة له . وكما أكد ذلك بقوله في آية أخرى:
" بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ."- النساء : ١٥٥ -
أي كان الطبع على القلوب بسبب الكفر .
وهذا الذي انتهينا إليه يوضح المراد بقوله :
" يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء.."- النحل : ١٣ -
فالذي يشاء الله إضلاله : هو ذلك الإنسان الخارج على هدايته الفطرية، المبتعد عنها بعدم تأكيدها بمنطق العقل والشرع ، وإنما يحاول إخفاءها وطمسها بالاستجابة إلى أهوائه وشهواته ومعاصيه ، والتي يغلبها على منطق عقله وأوامر شرعه.
والذي يشاء الله هدايته: هو الذي يؤكد تلك الهداية الفطرية ، باستجابته لمتطلبات العقل ويقترب من الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.
وقد أشار الله تعالى إلى هذا المهتدى بقوله ": قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ." الشمس : ٩ ".
كما أشار إلى ذلك الضال بقوله : " وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ." الشمس : ١٠
ومما يؤكد صحة هذا التفسير للآية ما جاء في كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الهدى والإضلال :
ففي مجال الهدى المترتب على فعل الخير جاءت هذه الآيات :
" وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا " العنكبوت - ٦٩
" يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ " المائدة - ١٦
" اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ" الشورى - ١٣
" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ" يونس - ٩
" وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ " محمد - ١٧
" وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " النور - ٥٤
" قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ " الرعد - ٢٧
وفي مجال الإضلال المترتب على فعل الشر من الكفر والفسوق والظلم والشرك جاءت آيات كثيرة نجترئ منها بهذه الآيات :
" فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" البقرة - ٢٦
" وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" البقرة - ٢٦٤
" وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " المائدة - ١٠٨

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" - الزمر – ٣

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " غافر – ٢٨

" فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " الصف–٥

ومن كل ما تقدم نرى أن الهداية والإضلال يتمان بفعل الله ومشيئته ، ولكن جزاء وفاقا لعمل الإنسان ، وموقفه من منح ربه وعطاياه . ومن ثم فعلى الإنسان

أن يتحمل مسؤولية عمله واختياره ، وألا يلقي باللائمة على غيره :

" قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ " يونس – ٣٧

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه الدراسة أن الهداية من الله تكون ثوابا معجلا للإنسان الذي يستجيب لنداء الفطرة التي فطر عليها، وأن الإضلال من الله إنما هو عقوبة معجلة لمن أعرض عن الاستجابة لهذا النداء. و بذلك تظهر العدالة الإلهية واضحة للعيان لا تشوبها شائبة. ويتبين المراد بقوله تعالى:

" يضل من يشاء ويهدي من يشاء".

٤٢–افتتاحية مجلة الشريعة الكويتية–العدد/١٦/مارس/١٩٩٠

النموذج الرابع

دراسة مجملة لمقاصد سورة الكهف

بشارة ..وإنذار:

سورة الكهف سورة مكية، نزلت قبيل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وقد تضمنت فيما تضمنت إجابة ما طلبه المشركون في مكة من النبي – ﷺ – من خبر الفتية المؤمنين الذين عاشوا في الزمن الماضي "أصحاب الكهف" وخبر الرجل الذي جاب الأرض شرقاً وغرباً "ذي القرنين". وقد كان اليهود في المدينة أشاروا على مشركي مكة أن يسألوا رسول الله – ﷺ – عن هذين الأمرين، وعن الروح، وذلك بعد أن أبدى المشركون لليهود رغبتهم في التأكد من صدق ما جاء به محمد – ﷺ – من أمر النبوة وخبر السماء.

كذلك جاء في السورة خبر موسى – عليه السلام – مع الرجل الصالح. وهو الأمر الذي لم يطلبه اليهود، وكأن في ذكر هذا الخبر إشعاراً لليهود بأن عليهم أن يطامنوا من كبريائهم، وأن يكونوا أكثر تواضعاً، وأن يعلموا أن ما اقترحوه على المشركين من أسئلة للتأكد من صحة نبوة محمد – ﷺ –، يلزمهم مثلها فيما أخبرهم به من شأن موسى – عليه السلام – مما لا يعرفه غيرهم، وبذلك تلزمهم الحجة كما لزمت المشركين، بعد أن أخبر الله كلا الفريقين بما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي والنبوة، وأن على اليهود أن يقتدوا بنبيهم موسى – عليه السلام – والذي لم تمنعه منزلته عند الله ومكانته في أولي العزم وعلمه بالتوراة المنزلة عليه من أن يجرى وراء الرجل الصالح يطلب العلم ويستزيد منه، ففي ذكر هذا الخبر تعريض بموقف اليهود من النبي – ﷺ – لأنهم يعرفون خبره وصدقه، ومع ذلك يعرضون عنه حقداً وحسداً واستكباراً، وكان الأجدر بهم أن يتبعوه ويصدقوه ويؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه مصدقاً لما قبله من التوراة والإنجيل والكتب السابقة.

وإذا كانت السورة بما جاءت به من القصص، وما تضمنته من مشاهد القيامة تؤكد للمشركين ومن وراءهم من اليهود صدق محمد – ﷺ – فيما جاءهم به من أمر النبوة عموماً، فإنها في نفس الوقت قد جاءت تلبية لحاجة الدعوة الإسلامية الناشئة ومتطلباتها الملحة، وذلك بعد أن بدأت صراعها مع المجتمع الجاهلي من حولها، وغدت أحوج ما تكون إلى التوجيه والتسديد لترسيخ القيم الإسلامية الجديدة، وبناء المجتمع الإسلامي الوليد على أنقاض المجتمع الجاهلي المتداعي. ومن ثم كانت السورة في جملتها بشارة للمؤمنين برحمة الله لهم ونصرهم على عدوهم، كما أنها إنذار للكافرين ببأس الله وعذابه، والهزيمة التي تنتظرهم على أيدي المؤمنين المخلصين، وهي حاجة متجددة دائماً وأبداً طالما أن هناك صراعاً بين جند الرحمن، وأتباع الشيطان.

وتتجلى البشارة والإنذار في قصص السورة، كما تتجلى في مشاهد القيامة سواء بسواء، وكذلك تشمل الحياة الدنيا كما تشمل الحياة الآخرة.

ففي قصة أصحاب الكهف يرى المؤمنون بالنبي – ﷺ – أنفسهم في موقف الفتية الذين آمنوا بربهم من أهل الكهف، وهم يستروحون عبير الرحمة الإلهية ينشرها الله في أرجاء كهفهم، بعد أن فارقوا قومهم المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، حيث هجروا زينة الحياة الدنيا طلباً لمرضاته. ورغبة في ما عنده :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إَلاَّ اللّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّءْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ﴾ –الكهف –١٦–

كما يرى مشركو مكة أنفسهم في موقف المشركين المعاصرين لأهل الكهف، والذين قام أهل الكهف ينكرون عليهم شركهم ويدعونهم إلى عبادة الله الواحد:

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ –الكهف –١٥.

كذلك يستبشر المؤمنون بالنبي – ﷺ – بنصر الله لهم حين يعلمون أن دولة الشرك التي اضطهدت أهل الكهف قد زالت من الوجود، كما يظهر من القصة بعد أن بعث الله أهل الكهف من نومهم الطويل، على حين يرى المشركون من أهل مكة في ذلك إنذاراً لهم بالهزيمة المتوقعة، وسوء العاقبة في صراعهم مع المؤمنين بمحمد – ﷺ –.

وفي التعقيب على قصة أصحاب الكهف تتبدى البشارة والإنذار شاخصين في مشهد من مشاهد القيامة، حيث يرى المشركون أنفسهم وقد أحاط بهم العذاب من كل جانب، كما يحيط السواربالمعصم:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ –الكهف –٢٩–

كما يرى المؤمنون أنفسهم وقد أخذوا جزاء إحسانهم إحساناً، فهم يتقلبون في أعطاف النعيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً –٣٠–
أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ –الكهف– ٣٠ – ٣١–

كذلك يرى المؤمنون أنفسهم في موقف الرجل المؤمن الفقير الصابر الشاكر الناصح، في حين يرى المشركون أنفسهم في موقف صاحب الجنتين المتكبر المتبطر، الظالم لنفسه، المعتز بماله وولده وجاهه، المغتر بدنياه الغافل عن أخراه، كما يرى كل فريق من المؤمنين والمشركين عاقبته فيما آل إليه صاحبه من مصير. فأما صاحب الجنتين:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً –٤٢– وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ –الكهف –٤٢ – ٤٣–

وأما ذلك الفقير الشاكر: فقد أثابه الله على موقفه خيراً:

﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ -الكهف -٤٤-.

كذلك يرى المشركون أنفسهم في مثل الحياة الدنيا السريعة الزوال، وقد شغلتهم زينتها الفانية بما فيها من مال وبنين: ا﴿لْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ -الكهف -٤٦-

كما يرى المؤمنون أنفسهم في العمل الصالح الذي يبقى أثره ويخلد ذكره، ويستوجب من الله المثوبة والأجر: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ -الكهف -٤٦-.

ثم مشهد من مشاهد القيامة يثير الرعب وينشر الخوف بما يحمل من هول وكرب، ينذر به المشركون، إذ يرون أنفسهم في مواجهة الحساب:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ - الكهف -٤٩-

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ -الكهف -٥٣-

وفيما جرى للأمم السابقة المكذبة من العذاب الدنيوي إنذار للمشركين المعاصرين للنبي - ﷺ -.

ومن رحمة الله بهم أن لا يعاجلهم العقوبة، وأن يترك لهم فرصة التوبة:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً [٥٨] وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ -الكهف -٥٨ - ٥٩-.

وفي قصة موسى مع الرجل الصالح نرى البشارة بالرحمة الإلهية للمؤمنين تتبدى في مواقف ذلك الرجل الذي ساقه الله ليكون رحمة للضعفاء والمساكين، فقد خرق السفينة رحمة بأصحابها المساكين، حتى لا يأخذها الملك الظالم، وقتل الغلام رحمة بأبويه المؤمنين، كي لا يرهقهما طغياناً وكفراً، ولأن الله سيبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما. وأقام الجدار بلا مقابل رحمة باليتيمين، حتى يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما.

كما نرى الإنذار بالعذاب وسوء العاقبة للمشركين يتبدى في عدم تمكين الظلمة من تحقيق أغراضهم، وتفويت الفرص عليهم، سواء كان الظالم في صورة ملك جائر، أو في صورة غلام كافر، أو في صورة غاصب فاجر.

وإنما تحقق كل ذلك بفضل تلك المواقف التي وقفها ذلك الرجل الصالح الذي قال الله في شأنه:

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ -الكهف -٦٥-

بل إن كل ما فعله من أجل هؤلاء المستضعفين إنما كان بتوجيه إلهي مباشر:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ -الكهف -٨٢-.

ثم تأتي قصة ذي القرنين، وهي في جملتها بشارة للمؤمنين المستضعفين: أن ما هم فيه من ضعف وقلة، لن يدوم ولن يستمر، وأنه مرحلة لابد منها في طريق التمكين في الأرض الذي وعدهم الله به، وأن عليهم إذا مكن الله لهم أن يسيروا بسيرة ذي القرنين، وأن ينسجوا على منواله، فهو الحاكم العادل المؤمن الذي ينشر رحمة الله بين عباده.

وتتجلى البشارة بالرحمة للمؤمنين والإنذار بالعذاب للكافرين في قصة ذي القرنين في موقفه من القوم الذين وجدهم عند مغرب الشمس، والذين أطلق الله يده فيهم يفعل بهم ما يشاء، فلم يكن منه إلا أن قال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً -٨٧- وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ -الكهف -٨٧ - ٨٨-.

كذلك تتجلى البشارة والإنذار في موقفه من القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، والذين طلبوا منه أن يبني لهم سداً يحول بينهم وبين تدفق السيل البشري الهمجي "يأجوج ومأجوج" مقابل مال يدفعونه إليه، إلا أن رحمته بالمستضعفين ومعاقبته للكافرين يأبيان عليه أن يأخذ مالاً مقابل ذلك، وإنما طلب إليهم أن يعملوا معه ليعلمهم كيف يكون العمل والبناء، وبعد أن أتم العمل وأقام السد واختبر صلاحيته قال:
﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ -الكهف -٩٨-.
وبعد قصة ذي القرنين يأتي التعقيب الأخير يعرض مشاهد من القيامة فيها الإنذار للكافرين:
﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ -الكهف -١٠٦-
وفيها البشارة للمؤمنين:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ -الكهف -١٠٧-. وفيها دعوة إلى عبادة الله وتوحيده، والإيمان بالآخرة، لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى جنة الله ورضوانه....[٣٨]
وهكذا تبدو لنا سورة الكهف وحدة موضوعية متماسكة، تظللها البشارة والإنذار عموما، ثم نرى البشارة والإنذار يلوحان في تفاصيل المشاهد والمواقف. كذلك نرى السورة نزلت تجيب عن أسئلة المشركين التي أشار بها اليهود المعاصرون للنبي، والتي أرادوا من ورائها التعرف على صدق النبي فيما جاء به من الوحي الإ لهي- في شأن أصحاب الكهف، وشأن ذي القرنين-. وهي في نفس الوقت تلبي مطالب الدعوة الناشئة في صراعها مع المجتمع الجاهلي، وتعد المؤمنين المستضعفين قبيل الهجرة، بما تحقق لأصحاب الكهف المستضعفين الذين بعثهم الله بعد نومهم الطويل، وقد زالت دولة الشرك. كما تعد المؤمنين المستضعفين في زمن النبي-صلى الله عليه وسلم بالتمكين في الأرض كما مكن الله لذي القرنين، الذي آتاه الله من كل شيء سببا يوصله إلى غايته، فبلغ مطلع الشمس ومغربها. وهكذا مكن الله لأمة الإسلام في الأرض حيث انتشرت رسالة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

٣٩- افتتاحية مجلة الشريعة الكويتية-العدد:١٢-شهر١٢-١٩٨٨

خا تمة :

وفي نهاية هذ البحث لابد أن نؤكد على النقاط الآتية:

-إن التفسير الموضوعي -بأنواعه- طر يق لابد منه لمن يريد الوصول إلى مقاصد القرآن.

-هناك دراسات كثيرة معاصرة في ا لتفسر الموضوعي، وبخاصة في ميدان المصطلحات القرآنية.

- غير أنها ليست كلها على المستوى المطلوب، ومن ثم تتفاوت جودة وضعفا، فلا بد من القراءة الناقدة.

-عقدت ندوات، و أ قيمت مؤتمرات للتفسير الموضوعي ، بقصد المد ارسة، والتقويم، والتطوير.

-أقيمت مشروعات للتفسير الموضوعي من قبل بعض الكليات بهدف إيجاد تفسير كامل للقرآن.

-غير أن هذه الجهود كانت جماعية لمتخصصين وغير متخصصين، فلم تحقق الغاية المنشودة.

-إن الجهود الجماعية لن تحقق الهدف المرتجى من هذه الدراسات، لأنها تعمد إلى جمع المادة الموجودة.

-بينما المطلوب : جهد حقيقي فردي قائم على التدبر والتفكر والتبتل، ليصل الدارس إلى المكنون طي الحروف والكلمات.

ملحق: يتضمن دراسات التفسير الموضوعي–لصاحب البحث–.

ولمن أراد مزيدا من الدراسات التطبيقية، في مجالات التفسير الموضوعي، وما يترتب عليها من إسهامات في تبين مقاصد القرآن، فإننا نحيله إلى الدراسات التي سبق أن نشرناها بالعناوين التالية:

١- القرآن ومعركة المصطلحات، نشر في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- العدد الأول- السنة الثانية: عام ١٣٨٩ هـ.

٢- الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، نشرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض عام ١٩٧٩ م، وطبع في دار عمار في عمان عا١٩٨٣ م.

٣- – معاني المحكم والمتشابه في القرآن–نشرته مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية- العدد الخامس- عام ١٩٨٦ م.ثم طبع في دار عمار.

٤- الخلافة في الأرض- طبع في دار الأرقم- في الكويت عام ١٩٨٦ م.ثم طبع في دار عمار.

٥- فطرة الله التي فطر الناس عليها، طبع في عمان عام ١٩٨٧ م، طبعته دار البشير . ثم طبع في دار عمار.

٦- الذين في قلوبهم مرض- طبع في دار البشير–عمان، عام ١٩٨٧ م. . ثم طبع في دار عمار.

٧- افتتاحيات مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الكويت- من العدد السابع، حتى العدد السابع عشر- من عام ١٩٨٦ م- ١٩٩٠ م.

٨-"سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول" – مجلة كلية الدراسا الإسلامية والعربية في دبي- العدد الثامن- عام ١٩٩٤م- وصدر عن دار عمار عام ١٩٩٩ م .

٩- مصطلح الفكر الإسلامي- صدر عن دار عمار سنة ٢٠٠٣ م- وسبق نشره في مجلة كلية الآداب في فاس – عدد خاص- بعنوان: الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية سنة ٢٠٠١ م–.

١٠–معاجم مفردات القرآن- موازنات ومقترحات- قدم لندوة :"عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن وعلومه" المنعقد، بمجمع الملك فهد بالمدينة المنورة سنة ٢٠٠٠ م .

١١- نحو منهجية موحدة لتفسير القرآن، نشر ضمن بحوث: مؤتمر الوحدة الإسلامية الذي انعقد في الجامعة الإسلا مية في ماليزيا- كوالالمبور–عام ٢٠٠٣ م.

١٢- أثر المصطلح القرآني في التداخل والتكامل المصطلحي في العلوم الشرعية، نشر هذا البحث في مجلة الأحمدية- دبي- العددالعشرون عام ٢٠٠٥م

١٣- الإسلام والحضارة : فصل- ضمن كتاب الفكر الإسلامي- لجامعة الإمارات، عام ٢٠٠٣ م.

١٤–تأملات في سورة الرحمن–مجلة الأحمدية–دبي- العدد ٣–١٩٩٩م

مراجع البحث

التفسر الموضوعي –تحت الطبع-	لأحمد حسن فرحات
الذريعة إلى مكارم الشريعة	للراغب الأصفهاني
الكلمات	لبديع الزمان سعيد النورسي
جمهرة البلا غة	لعبد الحميد الفر اهي
جواهر القرآن	لأبي حامد الغزالي
الخلافة في الأرض	لأحمد حسن فرحات
دلائل النظام	لعبد الحميد الفر اهي
فاتحة نظام القرآن	لعبد الحميد الفر اهي
في ظلال القرآن	لسيد قطب
مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة	العدد الأول -١٣٨٩هـ
مجلة الشريعة الكويتية	ا لعدد-١٢-عام ١٩٨٨
مجلة الشريعة الكويتية	العدد-١٦ - عام١٩٩٠
مجلة الشريعة الكويتية	العدد-١٧ - عام١٩٩٠
مقومات التصور الإسلامي	لسيد قطب
نظام القرآن	لعبد الحميد الفر اهي
الناسخ والمنسوخ	لأبي جعفر النحاس
النبأ العظيم	لمحمد عبد الله دراز